

دراسات أدبية في عصر بني أمية

تأليف

أ. د. علي الخطيب

الأستاذ بجامعة الأزهر





رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

الخطيب، على.
دراسات أدبية في عصر بني أمية.
تأليف ، على الخطيب..
ط ١ - القاهرة ، دار المعارف، ٢٠١٤.
١٦٠ ص ، ٢٥ سم.
تدمك ٩ - ٨٠٠٨ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.
١ - الأدب العربي - تاريخ - العصر الأموي.
٢ - الأدب العربي - تاريخ ونقد.
(١) العنوان

ديوى ٨١٠.٩٣

١ / ٢٠١٤ / ٢٢

رقم الإيداع ٢٠١٤ / ١٩٨٧٠

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

أهدي هذا النتاج العلمى إلى:
أحفادى..

«عمر نوبى، ورميثة، وريثال، وريماس».

حبا وأملا..

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ العصر الأموي هو ذلك العصر المعروف باسم «عصر الدولة الأموية» أو «الأدب الأموي» وكان ذلك في الشام. والمقصود بـ «الشام» يوم ذاك «سوريا، الأردن، فلسطين، ولبنان»، وكان ممتدًا من سنة إحدى وأربعين من الهجرة إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة النبوية الكريمة والذي يوافق إحدى وستين وستمائة إلى سنة وخمسين وسبعمائة للميلاد، وبذلك يبلغ من العمر نحوًا من تسعين عامًا. والخلفاء الذين حكموا في هذه الدولة فرعان، هما: «الفرع السفيفاني، والفرع المرواني».

فبعد معركة «صفين» التي كانت بين سيدنا «علي بن أبي طالب» عليه السلام وسيدنا «معاوية ابن أبي سفيان» عليه السلام نادى «معاوية بن أبي سفيان» والي الشام بنفسه خليفة على الشام ودام حكمه نحوًا من عشرين عامًا، فقد حكم الشام من سنة إحدى وأربعين للهجرة إلى سنة ستين للهجرة والتي توافق سنة إحدى وستين وستمائة للميلاد، وثمانين وستمائة للميلاد أيضًا، وقد ثبت الملك يوم ذاك لبنى أمية، وجعل الخلافة وراثية في أهله وكانت المشكلة الأساس التي واجهت سيدنا «معاوية» عليه السلام هي أن أقطار الخلافة الباقية وهي «الحجاز، والعراق، ومصر» وما وراءها كلها لم تكن تابعة له ثم كان له فيه منافسون أقوى، بيد أن سيدنا «معاوية» استطاع أن يستولي على «مصر» في يسر وسهولة تأمين، كما استطاع أن يستولي على بعض أجزاء العراق، وأن يقوم ببعض الفتوحات في المشرق والمغرب.

ولقد كان من أقوى منافسية سيدنا «عبدالله بن الزبير» عليه السلام، وكان يبسط نفوذه على الحجاز كله، وعلى جانب من العراق. وخلف «معاوية بن أبي سفيان» عليه السلام ابنه «يزيد بن معاوية»، بيد أنه لم يكن كأبيه في الدهاء فكانت في أيامه مأساة «كربلاء»، وكانت هذه الواقعة في العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، واستشهد فيها «الحسين بن علي» عليه السلام ثم كانت في أيامه وقعة «الحرّة» وغزو المدينة، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة، والتي توافق شهر أغسطس سنة اثنتين وثمانين وستمائة للميلاد فأصبح أعداء الأمويين كثيرًا في العراق وفي الحجاز، وكان سيدنا «عبدالله بن الزبير» عليه السلام قد استبد بحكم الحجاز، ثم جاء بعد يزيد بن معاوية ابنه «معاوية» وكان شابًا ضعيفًا عليلًا

فتوفى وشيكا وبذلك نرى النزاع يعود على الخلافة من جديد، ولكن الخلاف هذه المرة كان بين عدد أكبر من الطامعين في الخلافة، ثم بين نفر من رؤوس بني أمية، وقد تغلب «مروان بن الحكم» شيخ بني أمية يوم ذاك على الطامعين وذلك بأمرين هما: الدهاء، والوعود، ولكنه اضطر أن يقاتل «عبدالله بن الزبير» فالتقى جيش «مروان» وكان معظمه من اليمانية ومن أهل الشام جيش «عبد الله بن الزبير» وكان معظمه من أهل الحجاز من القيسية، وذلك في وقعة «مرج راهط» على مقربة من «دمشق» فكانت الغلبة لـ «مروان» فعادت الخلافة إلى الاستقرار لبني أمية، ولكن في فرع جديد عرف في التاريخ باسم الفرع المرواني، وذلك نسبة إلى «مروان بن الحكم» ومكث «مروان بن الحكم» في الخلافة عشرة أشهر، ثم خلفه بعد ذلك ابنه «عبد الملك بن مروان» فبقي في الخلافة إحدى وعشرين سنة وذلك من سنة خمس وستين من الهجرة إلى سنة ست وثمانين للهجرة والتي توافق ٦٨٥ - ٧٠٥ للميلاد فاستطاع قائده «الحجاج بن يوسف الثقفي» أن يتغلب على «عبدالله بن الزبير»، وذلك بقتل عبدالله بن الزبير، ثم يأخذ البيعة «لعبد الملك» من أهل الحجاز كلهم، كما استطاع «الحجاج» أن يبسط نفوذ الأمويين على العراق ويثبت فيه ملكهم، ثم إن «الحجاج» بعث بالجيوش إلى المشرق ووسع الفتوح في «خراسان، وبلاد الترك، وفي السند - في الجانب الشمالي من شبه جزيرة الهند» وكذلك اتسعت فتوح العرب في المغرب (ليبيا وتونس، وما وراءهما)، ولكن لم تثبت إلا بعد أمد طويل. وقام «عبد الملك» بِصَكِّ عملة خاصة بهم، بعد أن كانوا يتعاملون بالعملة الرومية والعملة الفارسية.

كما قام بنقل الدواوين (كتابة سجلات الدولة) إلى اللغة العربية بعد أن ظلت إلى أيامه تكتب في العراق «بالفهلوية (الفارسية القديمة) وفي الشام «بالرومية» وفي مصر «بالقبطية»، وهكذا صارت اللغة العربية لغة دولة وإمبراطورية.

وبعد عصر «عبد الملك» جاء عصر ابنه «الوليد» فحكم عشر سنوات أتم في خلالها فتح «المغرب» ثم فتح «الأندلس»، وفي أيامه اتسع العمران وعمّت الحضارة. وكان بنو أمية قد خطوا لأنفسهم سياسة قومية عصبية عربية فأساء ذلك إلى الموالى (وهم المسلمون من غير العرب من الفرس والترك الذين كانوا كثرة السكان في الإمبراطورية الأموية)، وكذلك كانوا قد أساءوا إلى آل علي، وقاموا بدعوة سرية للثورة على الحكم

الأموى ودعوا إلى الرضا من آل «محمد» واتخذوا السواد (العلم الأسود والثياب السود) شعارا لهم مخالفة لبنى أمية الذين اتخذوا «البياض» شعارا لهم، وما إن جاء إلى العرش الأموى خلفاء ضعاف سياسيا كـ «عمر بن عبد العزيز» (٩٩هـ - ١١٧م) ويزيد بن عبد الملك (١٠١هـ - ٧٢٠م) حتى سود الدعاة (نشروا العلم الأسود: أعلنوا الدعوة) وأخذوا يقاتلون الأمويين، واستطاع هؤلاء أن يزعموا البيت المالک فسقطت الخلافة الأموية في المشرق سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م.

بقلم الأستاذ الدكتور/ على الخطيب
الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف

الثقافات الأجنبية

كان عصر بنى أمية ميدانا زمنيا لامتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية، ومعروف أن الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي كانت على صلة بالحضارات الأخرى كالفارسية والإغريقية والرومانية لكن هذه الحضارات في العصر الأموي اندمجت اندماجا تاما في الحضارات الأجنبية نتيجة للرقيق الأجنبي الذي انتشر في هذا العصر وشاع شيوعا كثيرا حتى ليذكر التاريخ أن من قتلوا في معركة (الحرّة) بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية من الموالى بلغوا خمسة آلاف، بينما قتل من العرب ثلاثة آلاف فقط.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبنائهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه، فأفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه»^(١).

وكان لهؤلاء الرقيق دورهم الفاعل المؤثر في مسيرة الأدب العربى في ذلك العصر، فقد نهض هؤلاء ولا سيما الجوارى بفن الغناء الذى فتحت له النوادى فى مكة والمدينة، وبرع فيه المغنون والمغنيات من أمثال ابن سريج، وابن محرز، وطويس، ونشيط، ومعبر، وحبابة، وسلامة القس وغيرهم^(٢). ومعروف أن عرب العراق خضعوا منذ القدم لتأثيرات فارسية ورومانية إغريقية، فإذا ضممنّا إلى هذا الإقليم إقليم فارس وما كان له من تأثيرات رومانية إغريقية عن طريق البيزنطيين الفارين إليها من اضطهاد دولتهم، ظهر بوضوح مدى التأثير الأجنبي فى حضارة هذا الإقليم وثقافته وآدابه.

أما إذا ذهبنا إلى بلاد الشام فسنجد التأثير الرومانى الإغريقى هناك عنيفا، وكان من أثار هذا التنظيم الحربى الذى كان شائعا فى رسائل العصر الأموى كما فى رسالة عبد الحميد الكاتب.

رُقَى الحياة العقلية

شهد عصر بنى أمية نهضة كبيرة فى الحياة العقلية تمثلت فى تدوين العلوم ومدارسها والتأليف فيها، فقد وضعت فى هذا العصر البذور الأولى للعلوم الشرعية والعربية وغيرها من فروع العلم.

(١) المقدمة ص ١٤٤.

(٢) للوقوف على أسماء هؤلاء وأخبارهم راجع الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني.

ومن العلوم التى أظهرت أو دونت فى هذا العصر:

علم التفسير والقراءات وعلوم القرآن:

فقد ظهرت فى العصر الأموى البدايات الأولى لعلم التفسير على يد عبد الله بن عباس وعروة بن الزبير - رضى الله عنهما - كما وضعت مصنفات فى غريب القرآن وعلومه وفى أسباب النزول.

كما ظهر أصحاب القراءات القرآنية السبعة، عبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وعاصم بن بهدلة، وعمر بن العلاء، وحمزة بن حبيب، ونافع بن نعيم، وعلى بن حمزة الكسائي.

الحديث وعلومه:

لم يدون الحديث على عهد النبى ﷺ والراشدين من خلفائه لظاهر نهيه ﷺ عن تدوينه، جاء فى صحيح مسلم «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمح، وحدثوا عنى ولا حرج»، ولعل السبب فى ذلك خوف اختلاط كلام الله - عز وجل - بسواه، لكن باستشهاد حفاظ الحديث من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم فى الفتوحات الإسلامية، واجتراء بعض الناس على نسبة أقوال إلى الرسول ﷺ دون أن يقلها، لجأ خلفاء بنى أمية - وأولهم عمر بن عبد العزيز - لتدوين الحديث بغية حفظه من الضياع.

الفقه وأصول المناظرات الفقهية:

ظهرت فى هذا العصر المدارس الفقهية التى تعنى بالأحكام وتدلى بآرائها الفقهية، وتضع لها أسسا وقواعد وأصولا، كما ظهرت المناظرات والمجادلات الفقهية بين العلماء. ذكر ابن سعد فى طبقاته أن إياس بن معاوية حين قدم «واسطا» جعلوا يقولون: قدم البصرى، فأتاه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها له فجلس بين يديه فقال: أتأذن لى أن أسألك؟ قال: ما ارتبت بك حتى أستأذنتنى إن كانت لا تعنت القائل ولا تؤذى الجليس فقل، فسأله عن بضع وسبعين مسألة، فما اختلفا يومئذ إلا فى ثلاث مسائل أو أربع رده فيها إياس إلى قوله، ثم قال: يا ابن شبرمة هل قرأت القرآن؟ قال: نعم من أوله إلى آخره، قال: فهل قرأت «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى»؟ قال: نعم وما قبلها وما بعدها، قال: فهل وجدته بقى لآل شبرمة شىء ينظرون فيه؟ فقال: لا، فقال له إياس:

إن للنسك فروعاً، فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد، وقال: إني لا أعلمُكَ تعلقت من النسك بشيء أحسن من شيء في يدك: النظر في الرأي^(١). وفي هذا النحو حفل ذلك العصر بمثل هذه المناظرات الفقهية.

العقيدة وعلم الكلام:

ظهرت في هذا العصر أبحاث في العقيدة، وظهرت معها مقدمات علم الكلام وكان من أهم المسائل التي عرضت للبحث مسألة الإيمان وهل من الضروري أن يرفق بالعمل أو ليس ذلك من الضروري، فالمسلم يعد مؤمناً وإن جار عن طريق القصد، وبذلك لا يكون هناك فرق بين مسلم ومسلم، فالجميع من أهل القبلة وإن عصوا، أو لم يؤدوا الفريضة، وذهبت تدعو هذه الدعوة فئة سميت بالمرجئة، وكانت من أهم ما دعت إليه ترك الحكم على مصير الناس إلى ربهم، فعلى وعثمان ومعاوية مؤمنون ولا يمكن الحكم على أحدهم بخطأ، وكذلك كل مسلم لا يصح أن نتعرض له بحكم على عمله، إذ يكفي أن يكون مسلماً، أما عمله فمرجهه إلى ربه حتى ولو لم يصم ولم يُصلِّ فهو مسلم ولا يصح أن يطرد من حظيرة الإسلام^(٢).

الشعر والنحو وعلوم العربية:

كان الشعر العربي القديم محفوظاً في ذواكر الرجال حتى هذا العصر الذي قام فيه الرواة بجمع الشعر وتدوينه، ومن هؤلاء حماد الراوية، وخلف الراوى، وجفاد بن واصل، وعمرو بن العلاء، وقد ذكر الجاحظ عن هذا الأخير أن كتب الشعر عنده ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ثم إنه ضن بها فأحرقها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه^(٣).

كما ظهرت في هذا العصر البذور الأولى للنحو وعلوم العربية على نحو ما نجده من أبي الأسود الدؤلى الذى يعد فى نظر كثير من الباحثين الواضع الأول لعلم النحو.

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٥.

(٢) انظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٧٥.

(٣) راجع البيان والتبيين ٣٢١/١.

أثر الأحزاب السياسية فى ازدهار الأدب الأموى

مما لا شك فيه أن الأحزاب السياسية كثرت وازدهرت وترعرعت فى العصر الأموى، مما نجم عنه وجود موجة من التنافس الشديد والصراعات الدامية، مما كان له أكبر الأثر فى نفوس الشعراء على وجه الخصوص، وفى دولة الأدب على وجه العموم، إذ إن كل حزب يريد أن يرفع من شأن قاداته، ويحط من الآخرين، وهكذا شعر الأدباء بانتمائهم لأحزابهم، وأن عليهم واجباً لأحزابهم يتلخص فى قيامهم باستخراج أحسن ما عندهم من نثر وشعر، ليكون رمزاً لانتصارهم لأحزابهم التى ينتمون إليها، ويكون علامة مضيئة لهم فى طريق السياسة التى ينتهجونها، مما أذكى شعلة الأدب، وأجج نار العداوة بين شعراء الأحزاب، فأوقدوا جذوة الشعر فى نفوسهم والحماس فى قلوبهم، فجادت قرائحهم بأجود ما عندهم، وأحسن ما يدافعون به عن قبائلهم وأحزابهم.

وكلما تقدم الزمن تشعبت الأحداث وتشابكت الأمور، وكثرت الأحزاب، كل يقف على طرف نقيض من الآخر، ولا شك أن الشعر قد ازدهر بهذا وكانت له دولته، وأصبحت له مكانته المرموقة ومنزلته السامية، وحسبنا أن نعمن النظر فى دواوين الفرزدق وجريير والأخطل والبيث وغيرهم من شعراء الأحزاب الأخرى المتصارعة مما تزرخ به كتب التاريخ والأدب.

وفى مثل هذا الجو المتلاطم بالأحزاب، المتأجج بالفتن، والمتأزم بالتفاخر بالأحساب والأنساب، والعودة إلى الجاهلية الأولى، وبعثها من مرقدها من جديد، وجد الأدب شعره ونثره أرضاً خصبة أنبتت نباتها وآتت أكلها، فوجدت عقول الشعراء المادة الثرية الخصبة، والغذاء الوفير للفكر الأدبى الراقى، والأسلوب القوى، والخيال الخصب، والحماس المتقدم. ونتيجة طبيعية لكثرة الأحزاب السياسية فى هذا العصر، إحياء العصبية القبلية، والرجوع إلى النعرة الجاهلية التى تكمن فى شعر الأحزاب، والفرق المتطاحنة المختلفة، مما جعل الشعراء يأخذون من ماضيهم المعانى المختلفة يستعينون بها فى التفاخر والتعالى بشرف الأحساب والأنساب، وأى حزب من هذه الأحزاب السياسية الكثيرة أحق بالخلافة، وتولى زمام الأمور، معتمدين فى ذلك على ميراثهم من المجد التليد، والشرف الخالد الذى خلفه لهم الأدباء والأجداد وغير ذلك من الأشياء التى أماتها الإسلام.

وقد سجلت هذه المعارك التي دارت رحاها بين الأحزاب السياسية المختلفة، وأشعلت جذوتها العصبية القبلية شعراً قوياً ناطقاً بتلك الأمجاد والمفاخر كما نرى ذلك واضحاً جلياً في شعر ذلك العصر من نقائض ومفاخرات ومناظرات وغير ذلك مما امتلأت به كتب التاريخ.

وإذا كان الأدب في عصر الدولة الأموية قد تأثر تأثراً كبيراً إلى حد ما بالقديم فأحيا العصبية القبلية التي ألماتها الإسلام والتي ظهر أثرها واضحاً في شعر الشعراء، ونثر الكتاب والخطباء، فإنه مع كل ذلك كان للإسلام الأثر الأكبر في الأدب من حيث تقييم المفاهيم الأدبية وتنميق الأدب وتصفيته من الشوائب التي علفت به من آثام الجاهلية والرقى به إلى حد النضج والكمال.

حزب الخوارج

لقد كان الخوارج على كثرة فرقتهم دعاة الجمهورية الديمقراطية، وأقوى الجميع عقيدة، تكونوا أول أمرهم «من تميم» ومن جماعة القراء من جند الإمام «سيدنا علي بن أبي طالب» رضي الله عنه ثم من أبطال «القادسية» تلك المعركة التي كان يقودها البطل الهمام سيدنا «سعد بن أبي وقاص» رضي الله عنه - وكانوا يكرهون الشيعة والأموية - والسبب في تسميتهم بالخوارج أنهم خرجوا وتمردوا على الإمام «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه وأصحابه وقيل إنه اشتق من الخروج في سبيل الله - عز وجل - وهو مأخوذ من قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١) وسموا أيضاً «بالشراة» يعني الذين باعوا أنفسهم لله - وهو مأخوذ من قوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٢).

وقد حاربهم الإمام «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه في الواقعة الشهيرة المسماة بـ «واقعة النهروان» وهزمهم هزيمة نكراء، وقتل منهم عدداً كثيراً بيد أنه لم يأت عليهم، ولم يستأصل شأفتهم، ولم يند فكرتهم، وقد كانوا يقطنون الكوفة، ويحاربون في صف «علي» رضي الله عنه - إلى أن قبل سيدنا «علي» رضي الله عنه «التحكيم» فعدوا هذا خطأ ونفروا من أن يحكم أحد في كتاب الله، وقالوا: «لا حكم إلا لله» وقد جادلهم «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه بكل

(١) سورة النساء: آية رقم ١٠٠.

(٢) سورة البقرة: آية رقم ٢٠٧.

ما يملك ، ولكنهم تعصبوا لرايهم ، ولم يقبلوا أن يعودوا لسابق عهدهم ، ثم خطب فيهم خطيبهم : «أن اخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها فخرجوا إلى قرية قريبة من «الكوفة» تسمى «حَرَوْرَاء» وسموا حينئذ «بالحرورية» كما سموا أيضا «بالمُحَكِّمة» يعنى الذين يقولون «لا حكم إلا لله» وأمروا عليهم رجلاً منهم اسمه «عبد الله بن وهب الراسي» ومن أشهر فرقهم : «الأزارقة» وهم أتباع «نافع بن الأزرق» و«النجداث» وهم أتباع «نجدة بن عامر» - والأباضية وهم أتباع «عبد الله بن أباض» و«الصفرية» وهم أتباع «زياد بن الأصفر» - وقد بقى «الخوارج» شوكة في جنب الأمويين يهددونهم ، ويحاربونهم حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدولة وما زال ، «عبد الملك بن مروان» ، و«الحجاج بن يوسف الثقفي» و«المهلب بن أبي صفرة» يجالدونهم ، ويعانون الشدائد في قتالهم إلى أن هزمهم ، وأضعفوا شأنهم وقد امتاز هؤلاء بشدة التدين ، والإخلاص في العقيدة والشجاعة النادرة ، والتعصب للعربية الخالصة وهذا هو الذى جعل أدبهم قوياً لحماستهم وقوة شعورهم ونأيهم عن التقليد وذلك لتصوير نفوسهم الجديدة ، مع تأثرهم بالدين والحياة السياسية النادرة ، فجاء أدبهم فى ألفاظ منتقاة مع قوة السبك ، وفصاحة الأسلوب .

وقد قال فيهم «عبيد الله بن زياد» وقد حكموه فى شأنهم : لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع واشتهرت منهم كثرة كاثرة من الخطباء بـ المصاقع ، والشعراء الفحول مثل «أبى حمزة الشارى» وقطرى بن الفجاءة ، والطرماح بن حكيم ، وعمران بن حطان ، وإسماعيل بن يسار» وغيرهم .

حزب الشيعة

وأما الشيعة (يمينية) فقد نشأت مبكرة ، وهى تمثل العصبية الهاشمية التى تقول بخلافة «بنى هاشم» ، أو بنسل «على» ابن عم الرسول ووصيه ، وكانت نشيطة أيام «على» ثم خمدت على عهد «معاوية» وركدت ، ثم نشطت عقب مقتل «الحسين» واستمرت حتى آخر الدولة حتى قضت على الأمويين «ولم يكن» للشيعة من القوة مثل ما للخوارج إخلاصاً لعقيدتهم وفناءً فيها ، ولذلك كان أدبهم ضعيفاً حزيناً هو البكاء على حق مسلوب ، والحديث عن بيت الرسول المسقط المهين ، هو أدب البكاء والندب لا أدب القوة والثورة والانتصار كأدب الخوارج ، وللشيعة شعراؤهم كذلك «فالنعمان بن بشير الأنصارى» و«الكميت» أشهر هؤلاء ،

ومن الناس من يضع «النجاشي» و«أبا الأسود الدؤلي» و«ابن مفرغ الحميري»، و«الفرزدق» معهما - ويحسن أن نلاحظ هنا أن الحزب قد اعتمد على الموالي من الفرس خاصة، أو اعتمد عليه هؤلاء الموالي لإسقاط الأمويين، أو لإسقاط الدولة العربية الخالصة وإقامة الهاشميين، أو الدولة العباسية الفارسية، وسنجد أن الدعوة العباسية كانت أول الأمر شيعية خالصة أى لنسل «علي بن أبي طالب» وهم الذين عرفوا فيما بعد «بالتابعين ثم استمالت إلى «العباسيين» آخر الأمر - ولذلك كانت هناك أسرتان - فى العهد العباسى الأول - هاشميتان، متعديتان: العباسيون، والطالبيون. وفيما هما تتنازعا كان «الفرس» يستيقظون، ويستعدون لإعادة دولتهم الزائلة، فسيطروا على شئون الدولة أخيراً ثم ذهبوا بسُلطان الخلافة، ومزقوا إمبراطوريتها، وانتهت المسألة إلى ذهاب العباسيين وسقوط بغداد، وذلك شيء تقرأ تفصيله فى تاريخ العصر العباسى.

حزب الزبيريين

والزبيرية: فكرة قديمة نشأت منذ وقعة «الجمل» حين وقف «الزبير بن العوام» مع «عائشة»، وطلحة» ضد «علي» وبدت حين امتنع «عبد الله بن الزبير» عن مبايعة «يزيد بن معاوية» وقد اعتصم «بمكة» وأعلن نفسه خليفة واستولى على «العراق» ومكث والياً تسع سنين، وكان يعتمد على القيسية، ويشايعه عبد الله بن قيس الرقيات من الشعراء، ومصعب أخوه، وزفير بن الحارث الكلابى القيسى، والضحاك بن قيس، وإسماعيل بن يسار النسائى وأبو وجزة السلمى، المعروف «بالسعدى» وغيرهم كثير، واستمر «ابن الزبير» معتصماً «بمكة» وأخوه «بالعراق» حتى كان زمن «عبد الملك بن مروان» فهزم «مصعباً» وقتله سنة ٧١هـ ودخل «الكوفة» ثم حاصر أهل الشام بقيادة الحجاج مكة وهزموا «عبد الله بن الزبير» وقتلوه سنة ٧٣هـ بعد أن أبلى أحسن بلاء، وبموته هزم الحجاز الذى كان مبعث النهضة وحامل لوائها من عهد رسول الله ﷺ وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات القديمة التى بذلها «الحجاز» لاسترداد نفوذه الأدبى والسياسى.

حزب المهالبة

ولا بأس من ذكر المهالبة أو أنصار «المهلب بن أبى صفرة» وهم أسرة أزدية، عربية عرفت بالكرم والشجاعة، وكانت فى الأمويين «كالبرامكة» للعباسيين خدمة ونكبة، كبيرهم

«المهلب بن أبي صفرة» الذى عمل لبنى «أمية» وحارب عنهم «الأزارقة» وتولى «خراسان» من قبل «الحجاج» الذى كان يلى العراقيين، وقد توفى سنة ٨٣هـ.

ومن أولاده «يزيد بن المهلب»، والمغيرة بن المهلب «قاتل الخوارج»، وكانت له معهم وقائع ماثورة، ومنهم «مخلد بن يزيد بن المهلب» توفى سنة ١٠٠هـ و«حبيب بن المهلب» وكان أول عمل «المهلب» فى عهد «عبد الملك» لما أشار عليه «الأحنف بن قيس» أن يوليه قتال «الخوارج» ثم رأينا «يزيد» ابنه فى عهد «سليمان بن عبد الملك» يفتح بلاد «جرجان وطبرستان»، وكان أمير بلاد الشرق ثم نجد «يزيد» فى السجن أيام «عمر بن عبد العزيز» ثم يفر منه أيام «يزيد بن عبد الملك» ويخرج عليه فى «العراق» ثم يقتل وبذلك قضى على هذا البيت الذى كان معقل اليمنيين الذين حنقوا على «الأمويين» عقب مصرعهم، وقد مدحهم شعراء منهم «زياد الأعجم» و«ثابت قطنة» و«كعب الأشقرى»، و«حمزة بن بيض» و«بيهس الجرمى».

هذه كلمة مجملة عن الأحزاب السياسية التى أثرت فى الأدب الأموى، وجعلته أدباً سياسياً كأنه لم ينشأ إلا لخدمة السياسة غير أن الأحزاب وحدها لم تستقل بالتأثير فى الأدب بل اتصل بها وانضم إليها عامل آخر قوى له دوره الخطير لا نستطيع تفسير مواقف فحول الشعراء إلا إذا أجملنا القول فيه ألا وهو العصبية القبلية التى أحيها خلفاء هذه الدولة بعد أن عمل النبی وخلفاؤه على قتلها. فقال ﷺ ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية واقتدى الخلفاء (رضي الله عنهم) من بعده عليه السلام به فى إنفاذ هذه التقاليد السمحة الكريمة.

العصبية القبلية

وهذه العصبية تتصل:

١ - بولاية العهد.

٢ - بالقبائل والأسر المشهورة.

ونلخصها فيما يلى لنفرغ للناحية الأدبية الخالصة:

أولاً - ولاية العهد:

كانت ولاية العهد من أسباب سقوط الأمويين وضعفهم كما كانت ظاهرة لعصبية خطيرة شققت البيت الأموى وأساسها تعدد ولاة العهد، وحرص الخلفاء على تغييرهم فكان هذا

يورث الانقسام والبغضاء، وينتقل أثره إلى القواد والعمال، تذكر من هؤلاء «مروان، وعبد الملك، والوليد»، ولما تولى «سليمان» انتقم من «الحجاج»، و«قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم» وكان للشعراء في ذلك جولات خطيرة، ولن ننسى «آل المهلب» الذين خدموا الدولة خدمة جليلة، فقد مات «المهلب بن أبي صفرة» في قتال «الخوارج» ولكن «يزيد» ابنه قضى عليه «يزيد بن عبد الملك» وأخرب بيته، كل تلك العصبية حول «الحجاج» وغيره مما هو مفصل في التاريخ السياسي.

ثانياً - العصبية القبلية:

أما العصبية القبلية، فكانت شراً مستطيراً في حياة هذه الدولة التي نجمل القول فيها هنا ومدارها أمران أثنان:

- ١ - الخصومة بين «قيس» و «تغلب» في بلاد الجزيرة والشام.
 - ٢ - الخصومة بين «مصر»، واليمن والعراق، وفي الشرق الإسلامي بوجه عام.
- ولا سبيل إلى فهم شعر «الأخطل» بدون المسألة الأولى إذ كان هذا الشعر مرآة صادقة لهذه الخصومة التي قامت بين القيسية والربعية خاصة، ثم بين «قيس» واليمن عامة هذه الخصومة إسلامية حديثة في أول درجاتها، وكانت في الجاهلية هينة لا خطر لها ومرجعها اقتصادى قبل كل شيء ثم سياسى بعد ذلك.
- وذلك أنه منذ العصر الجاهلى كان يسكن على حدود الشام قبائل يمنية «كغسان» اتخذت لنفسها مواطن على حدود البادية تعيش عيشة البدو، أو ما يقرب من ذلك. وكان الروم قد اصطنعوا هذه القبائل الغسانية، وأقاموا معها علاقات تشبه علاقات الفرس بالمناذرة ليتيسر لها بذلك أن تحمى حدودها الجنوبية، وأن تظفر بنوع ما من السلطان على عرب الجزيرة.

وكان النظام العام لحياة الغساسنة يشبه نظام الإقطاع فى القرون الوسطى، فالرئيس يتخذ له حصناً فى الصحراء ويعيش فيه معتزاً بطائفة من البدو، ويعتمد على الصيد وعلى الفروسية، وعلى الضريبة التى يفرضها على القوافل التجارية المارة به فيعيش من ذلك عيشة معتدلة، فلما جاء الإسلام ووجهت جيوشه للفتح خارج الجزيرة العربية، وقر فى نفس اليمانية المسلمة أن الشام لهم من قديم، فتهالك الجند اليمن على الشام وانضموا إلى الجيوش الذاهبة إلى الفتوح فيها، ثم ظلت الأجناد عقب ذلك فى بلاد الشام - فى حمص، ودمشق وغيرهما - وظلت الشام من عهد «عمر» إلى عهد «معاوية» مقصورة على

هذه الأجناد اليمينية فتقرب إليها «معاوية» واستطاع أن يظفر بحبها لطول إقامته هناك ولحسن سياسته، وأخيرًا أصهر إليها كما سبق.

بينما كانت الشام ملكًا أو كالمملك لهذه القبائل اليمينية سواء منها «الغسانيون» أو «الحميريون»، الذين وفدوا مع الجيوش أو صاروا إليها للتوطن كان الأمر على عكس ذلك في العراق فالقبائل المضربة نزحت إليه مبكرة، وكانت لها الكثرة الغالبة هناك شأن اليمينية في الشام، وبعد استقرار الإسلام في هذه البلاد وتنظيم الهجرة إليها استمر هذا النظام سائدًا فاليمينية إلى الشام والمضربة إلى العراق.

وهكذا حدث في أوائل العصر الأموي أن ذهبت القبائل القيسية إلى الشام طلبًا لحياة مستقرة وتكاثرت هناك فاضطر «يزيد بن معاوية» أن ينظم لها هذا الاستقرار وكانت من ذلك أن اتخذت «القيسية» لها جندًا شمالي «سوريا» هو جند قنسرين متاخماً للجزيرة التي كانت منذ العصر الجاهلي مستقر القبائل من «بكر وتغلب» فوجدت «قيس» شمالي «الشام» وأصبحت بين «تغلب» في الشمال، والقبائل اليمينية في الجنوب، نشأ عن ذلك طبعًا أن برمت «تغلب» بهذه الجيرة لسببين؟:

١ - اقتصادي: وهو جيرة «قيس» وأرض يعدها «التغليبيون» ملكًا لهم منذ القديم.

٢ - سياسي: وهو أن استقرار «القيسية» هنا سيجعل لها ضلعًا في الحكم، وسياسة الدولة ونظامها وذلك مع بأس «القيسية» وكثرتها المعروفة تبع ذلك قيام «ابن الزبير» بمكة يدعوا لنفسه بالخلافة ويتزعم الدعوة القريشية، وأنه يطلب «لقريش» حقها في الخلافة يشايعه «ابن قيس الرقيات» الشاعر الغزلي القرشي المعروف، في حين كان «يزيد» يعتز في ملكه باليمينية أخواله، وقد استغل «عبد الله بن الزبير» هذا الموقف فاستعان «بالقيسية» في وجه «يزيد» وأخذت المسألة السياسية تتعقد، فهذان الحزبان كما ترى يثلثهم الشيعة الذين يعتزون بالموالي وبعض «اليمن» لذلك كانت دعوة «ابن الزبير» تلقى رواجًا عريضًا في جزيرة العرب خاصة، فالتفت «المضربة» كلها حوله ومنها «قيس» التي أيدته في «الشام» و«العراق» و«نجد» و«الحجاز». فلما مات «يزيد بن معاوية» واضطرب حبل «الأموية» وانتهى بقيام «مروان بن الحكم» حدثت واقعة «مرج راهط» المشهورة بين اليمينية والمضربة، أو بين الأمويين والزبيريين وكان السبب الأول لهذه الخصومة سببًا اقتصاديًا، فكل من الطرفين كان يريد الاحتفاظ لنفسه بالشام، وأن يثبت فيها قدمه، ويضعف خصمه، وكلهم كان يتخذ مسألة الخلافة مبررًا لهذه الحرب الاقتصادية أولاً، والسياسية ثانيًا.

انتصرت اليمينية، وتم الأمر «لمروان» ثم «لعبد الملك» ابنه وكان تعصب اليمينية على «مضر» أولاً ثم «الأمية» ثانياً بسبب المصاهرة المعروفة، وهذه هي التي حاول اليمينية لأجلها إقامة «خالد بن معاوية» مكان «مروان» وإن لم يتم ذلك، فانصرف «خالد» إلى الاشتغال بالعلوم الكيماوية كما هو مشهور.

لما انحدرت «قيس» آلت إلى أطراف الشام والجزيرة، وتحصنت في بعض الحصون، وأهمها «قرقيسية» على نهر الفرات حيث التجأ «زفر بن الحارث الكلابي القيسي» وأشياعه، ولكن «عبد الملك» تغلب عليه وأنزله من حصنه.

في أثناء هذه الحوادث انتهزت «تغلب» هذه الفرصة - انتصار «اليمن» على «القيسية» - وأظهرت ضيقها بالقيسية وكان من ذلك حروب «تغلب» و«قيس» المشهورة في هذا الباب من البلاد الإسلامية، ووجدت «قيس» نفسها بين «تغلب» و«اليمن» واستمرت الحروب غير نظامية أول الأمر، والسلطان في ظاهره مستتب للأمويين الذين يشغلهم «ابن الزبير» عن هذه الخصومة بين حين وآخر في دائرة سلطانها.

وهناك عامل قديم قوى التحالف بين «تغلب» و«اليمنية» هو أن «يزيد بن معاوية» منذ ولايته العهد كان قد استغل شعر التغلبيين لمخاصمته الأنصار «اليمنية» وكان «الأخطل» هو هذا الشاعر الذي وقف مع «قريش» في وجه الأنصار. ولكن هذه المحالفة الجديدة بين «اليمن» و«تغلب» أيام «عبد الملك» غيرت الموقف، فانصرف «الأخطل» عن ذلك وعكف على هذه الحروب بين «تغلب» و«قيس» يسجلها ويهجو «قيساً» وأشياعهم فشعره مدحاً وهجاءً وسياسة وفخراً يدور حول هذه الوقائع وترك الماضي إلا إشارات خفيفة. هذا كان في الشام.

وأما في «العراق» و«نجد» و«البادية» فلم يكن الأمر خيراً من ذلك، كانت كثرة «المضرية» مع «ابن الزبير» فقيس كانت زبيرية بالإجماع، وكثير من «تميم» كذلك، ولكن بعض «تميم» كانوا أمويين عثمانيين «لا مروانيين» وكانوا يرون قتل «عثمان» ظلماً وأن «علياً» مالأ على قتله ويدافعون عن العثمانيين غير مسرفين في ذلك. وكان بعضها الآخر خارجياً، ولذلك كانت هناك خصومة أيضاً بين تميم العراق ونجد «من العثمانيين» وبين بعض «القيسية» في العراق ونجد «من الزبيرية» وكان «الفرزدق» لاعتزازه بتميم قومه الأقوياء يجابه معاوية بشعر فيه جفاء وغلظة لا يستطيعها سواه.

وحدث غير ذلك أن عقدت مخالقات بين «كلب وتميم» وأن بعض «تميم» حالفوا «القيسية» الزبيرية.

وهكذا كانت القبائل العربية في العراق مضطربة غير ظاهرة الميل لم تسلم أمرها «لابن الزبير» بصراحة، ولم تسلم أمرها للأمويين بصراحة، وظل العراق لا يعرف كيف ينظم أمره حتى جاء «مصعب بن الزبير» فأخذه عنوة، وظل فيه ضعيفاً حتى قتله الأمويون، واستولوا على «العراق» جميعه.

على هذا الأساس نستطيع تفسير هذه المواقف التي وقفها الشعراء في هذه الفترة من التاريخ السياسي والأدبي كذلك، وأدل ما نرى من ذلك هذه المحالفة بين «الأخطل» الشاعر النصراني التغلبي و«الفرزدق» الشاعر المسلم التميمي فكلاهما كان متصلاً بالحكومة الأموية مماثلًا لها على «القيسية» هذا شيء ولكنهما كانا على «جرير» وذلك لأن جريراً وقف في وجه «تغلب» مع القيسية، ثم كان للخصومة القبلية أثر فيها كان من التهاجي بين «جرير والفرزدق» وقد تدخل «الأخطل» بينهما مع «الفرزدق» مستغلاً ما بينهما من نضال، والعجيب هو موقف الراعي فهو شاعر «قيس» ولكنه انضم إلى «الفرزدق» على «جرير» في خصومة عنيفة جداً، مع أنه قيسى زبيرى الهوى، وكان المفروض أن يكون مع «جرير» لا عليه. وتفسير هذا الموقف أنه بعد هزيمة الزبيريين أرسل «عبد الملك بن مروان» بشراً أخاه والياً على العراق وكانت «أم بشر» من «القيسية»، فاجتهد «بشر» في تأليف «قيس» إليه وضمهم إلى «بنى أمية» بعد أن كانوا زبيريين، ومن هؤلاء «الراعى» ومتى انضم إلى السياسة الأموية وتخلّى عن الزبيريين فهو مخاصم لكل السياسة القيسية ولذلك انضم إلى «الفرزدق»، هذه المحالفة الثلاثية أيام «عبد الملك ابن مروان» هي محالفة معتمدة قبل كل شيء على السياسة القائمة بين «مضر وربيعة واليمن» بوجه عام وأساس هذه السياسة أن القبائل تماليء الأمويين ممالة النفاق عند بعض القيسية وممالة قوية عند المضربة ومتوسطة عند اليمينية.

هذه المحالفة بين «الفرزدق والراعى» قد تعقدت فيما بعد حياة «الراعى» ولكن بعد موته وعلى يد ابنه «جندل بن الراعى»، ففي أيام «سليمان بن عبد الملك» ثارت «تميم» بقيادة «وكيع بن أبى سود» في وجه «قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى» - قائد الجيوش في «خراسان» - وقتلت «قتيبة» لأن هذا حاول الخروج على «سليمان» وتلكأ في بيعته

وقد سمي لدى «سليمان» بغدر «بنى تميم» وغدر «وكيع» أيضاً فتعرض «الفرزدق» للخليفة وبسط رداءه ليكون ذلك علامة الضمان لوفاء «تميم» وكان أن أرسل «وكيع» بعد ذلك ببيعته «لسليمان»، أو حدث أن غضبت «قيس» لقتل «قتيبة بن مسلم»، وأما «الفرزدق» فقد أخذ يعاتب «أمية» أول الأمر ولكن «جندلاً» أسرف في هجاء «تميم» فاضطر «الفرزدق» أن يهجو كلاً من «جرير» و«جندل» هجاءً مرّاً عنيفاً.

وتفصيل هذه القصة بالجزء الأول من النقائض في شرح نقيضتي «جرير» و«الفرزدق» بهذه المناسبة، أول قصيدة «للفرزدق»:

تحن بزوراء المدينة ناقتي حنين عجول تبتغي البوراثم^(١)

وأما «ذو الرمة» فإنه كان يميل مع «الفرزدق» لعصبية نسبية بينهما – وهذا أمره واضح – فقد كان تغليباً، وكان يتنفس في جو أضيق من هؤلاء، إذ انحصرت قصائده بين هذين الحيين، قومه، وقيس، واضطرته المواقف أن يمدح «زفر بن الحارث الكلابي القيسي» لأنه وقع في يده أسيراً فأطلقه، ورد إليه متاعه وأكرمه.

هذه كلمة مجملة عن الأحزاب السياسية التي استحالَت أخيراً إلى فرق دينية تتجادل باللسان بعد أن كانت تتحارب بالسيف وهذا أفاد الأدب من ناحية التفكير العميق المنظم، والتعبير الدقيق والجدل حول مسائل دينية وسياسية وفلسفية، كما حاولت بقدر المستطاع أن أكتب فصلاً عن العصبية القبلية، وما كان بين القبائل والأسر والبطون من خصومات على الرسول ﷺ عمل وخلفاؤه على قتلها وزوالها، ولعل الذي حمل «معاوية» على إحيائها هو رغبته في صرف العرب عن التفكير في اغتصاب الملك وكسر شوكتهم بجعل بأسهم بينهم.



(١) الديوان.

سياسة الأمويين - وأثرها في الأدب

ننتقل الآن إلى الحديث عن السياسة الأموية التي اتسم بها الخلفاء، وكانت لها في عصرهم ومجتمعهم، مظاهر وصور عامة يجب أن نلتفت إليها، ونحن دخول على تاريخ هذا الأدب، وذكر خواصه الفنية في هذه الفترة.

١ - تغيير نظام الحكم:

من ذلك أن نظام الحكومة صار ملكاً عضواً وراثياً بعد أن كان أقرب إلى الشورى والديمقراطية، وذلك من شأنه كما حدث أن ينتج في الأدب لونيْن متقابلين أحدهما: لون فيه ملق ونفاق رغبة في العطاء أو رهبة من العقاب. ثانيهما: لون فيه ثورة ومعارضة قوية إما من جانب الحكومة ورجالها لقمع الثورات، وإما من جانب المعارضة في وجه الحكومة، فإذا كان اللون الأول محافظاً في الغالب لأنه تقليد لسانی، فإن الثاني مجدد في الغالب لأنه تعبير قلبي عن شعور حاضر حديث توفى به المواقف الجديدة.

٢ - عروبة الحكومة:

ومن ذلك أن الحكومة كانت عربية خالصة أولاً وفيها عصبية قرشية أحياناً، وذلك سمح للتقاليد العربية أن تسود من جهة، ولكثير من مظاهر الجاهلية أن تستمر ولا سيما أن الإسلام لم يستطع في هذا القرن الأول أن يُذهب تقاليد الجاهلية جملة، فبقى الخلفاء - كرؤساء الجاهلية - خطباء أو شعراء أو معنيين بالأدب يسألون عنه أو يكرمون رجاله، ويتأثرون به، ويكادون لا يعرفون سواه، ويشجعونه أكثر مما يشجعون العلوم، وكان رجالهم عرباً، فكان من الطبيعي أن ينزع الشعر إلى التشبث بالطابع العربي، وكذلك النثر جملة وأن تكون المثل المحتذاة كذلك، فالمدح يتجه إلى الكرم والشجاعة والنجدة لا بالتصوف ولا بالديمقراطية.

٣ - انتقال العاصمة إلى دمشق:

ومن ذلك الاستقرار النسبي الذي ظفرت به الأمة الإسلامية في هذا القرن منذ اتخذت «دمشق» عاصمة الحكومة الأموية واجتهدت أن تخضع العواصم الأخرى لسلطانها السياسي

والأدبى، «كمكة والمدينة» والكوفة، والبصرة، والفسطاط وقرطبة» فذلك صرف الأطماع العامة بعض الشيء، ووقر فى نفوس الشعوب أن هناك سلطاناً يجب أن يخدم ويعمل فى ظله كما وجه الإنتاج الأدبى خاصة إلى ناحية الشام بلاد الحكومة ومقر الخلافة فكان الشعراء ينشأون فى «العراق» وبواديه، وفى «الحجاز ونجد» ويرحلون إلى دمشق لعرض الشعر على الخليفة ترضية وانتفاعاً، وكان الخلفاء يستقدمون العلماء والأدباء لتعليم الأبناء، والاستفسار عن مسائل علمية وأدبية.

٤- ظهور العناصر الأجنبية:

ومن ذلك دخول العناصر الأعجمية فى تكوين الأمة الإسلامية وذلك عن طرق شتى:

- ١ - منها الذين دخلوا فى الإسلام واعتنقوه.
 - ٢ - ومنها الذين عاشوا بين المسلمين ولم يسلموا، ولكنهم كانوا على صلة نفسية وتجارية واجتماعية مع المسلمين.
 - ٣ - ومنها الرقيق الذى كان يدخل البيوت الإسلامية، ويكون عنصراً من أسرها.
- وكل أولئك كانت لهم ذهنياتهم وأفكارهم الأجنبية، والتي كانت مددًا للأدب الإسلامى إلى حد ما، وذلك فوق ما وجد المسلمون فى البلاد المفتوحة من آثار ومظاهر الحضارات الفارسية، واليونانية والهندية، والمصرية والأوربية.
- وكل تلك من شأنها أن تؤثر فى نفوس الأدباء، وإن لم يبلغ مبلغه فى الدولة العباسية.

٥- العصبية العربية:

لقد أحياء «معاوية» العصبية العربية التى حرم الإسلام الاعتضاد بها، والدعوة إليها، وكان فى إحيائها حياة لكثير من أمور الجاهلية من المهاجرة والمفاخرة، والاجتماع فى الأسواق بكناسة «الكوفة» أو مريد «البصرة» «على» غرار ما كانت عليه فى عهد الجاهلية بسوق «عكاظ» وغيره متدلين إلى ذكر المثالب الخاصة، والمعائب الفردية والمخازى، التماساً للغلبة الدنيئة، ولقد اضطربت هذه العصبية وقوى شأنها، وعادت جذعة فأصبح فى كل بلد إسلامى فريقان «مضرى ويمنى»، وافترق كل فريق إلى شيع وأحزاب، واستباح القوم فى سبيل إثارة هذه الروح كل محرجة، وشاء الله أن يكون للعصبية دخل فى تولية الخلفاء والأمراء وقادة الجند، كما كان لها سبب فى القضاء عليهم وزوال ملكهم.

٦- وسائل تقريب وإغراء:

(أ) كان «معاوية» يترك خصومه أحراراً يقولون ما يريدون عملاً بسياسته التي أعلنها بقوله: «وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القبائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى» ولهذا كان يسمع هجاءه بأذنه، فيعفو ويصفح. يقبل من العلوى أو العلوية النقد والتوجيه فى مجلسه وبين أمرائه وبمسمع من حجابه ثم لا يكون منه إلا إجمال العطية والحمل على أوطأ مركب.

وهو القائل «لعمرو بن العاص»: «لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» قال عمرو: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إن هم شددوا أرخيت، وإن هم أرخوا شددت».

(ب) كذلك بذل المال وقطع الألسنة بالعتاء، والزيادة فيه على حسب ما تقضى الزيادة، وساق أكثر هذا المال إلى أهل المدينة من المهاجرين والأنصار حتى لقد ضاعف عطاء «الحسن والحسين» عليهما السلام - إلى مائتى ضعف عما كان يعطيه «عمر» رضي الله عنه فقد كان خمسة آلاف درهم، فجعله ألف ألف، ولقد كان من أثر ذلك المال المتدفق على المدينة أن لأن أحداثها الناشئون وفسدت غرائزهم، ووجد الطرب والشراب مجالاً واسعاً ومكاناً فسيحاً، وكانت القيان تنقل من بلاد «فارس» لتباع فى «المدينة» حتى صارت أكثر بلاد الإسلام مغنين ومغنيات، ومنها انتشر الغناء فى المملكة العربية.

(ج) بل جعلوا للشعر نصيباً من بيت المال مع أن المال لا يستحق إلا من جاهد واشترك فى الغزوات، وتلك بدعة ابتدعوها ليشتروا بها السنة الشعراء ليمدحوهم ويبالغوا فى وصفهم وما زال المال يصرف فيما أبطله من مظالم بنى أمية.

وبعد

فهذه كلمة عن سياسة الأمويين التى ساروا بها فى أمور الدولة ومنها يتضح أنه لم تكن سياسة إسلامية تجمع الناس فى ذات الله على سواء، وتأخذ من مسيئتهم لمحسنهم، ومن قويمهم لضعيفهم، وتؤدى صدقات المسلمين فى وجهها، التى شرعها الله، ولكنها كانت سياسة ملك عضوض وعصبية ذميمة، وبذل المال حيث لا تنفع القوة، استشرى الفساد وأهملت الحدود وشربت الخمر وارتكبت الفواحش وكثر المخنثون، وفى سبيل تثبيت ملكهم ارتكبوا من الفظائع والأهوال ما تقشعر له الأبدان، فهم قد ذبحوا ابن الرسول ﷺ

على بطحاء «كربلاء» وطوقوا بقية هذه السلالة الطاهرة بالقتل والتشريد، وهم قد استباحوا مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام كما تستباح بلاد العدو بعد الحرب الطاحنة، وهم قد أحرقوا أستار الكعبة وسلطوا عليها المنجنيق وهم قد تغاضوا عن ظلم ولاتهم وتعسفهم أمثال «زياد والحجاج» وإسرافهم في سفك الدماء، ولكننا إنصافاً لهذه الدولة نذكر أنها أتمت سلسلة الفتوح الإسلامية حتى وصلت إلى بلاد الأندلس غرباً وإلى أسوار القسطنطينية شمالاً، ولم تفتتن بمناهج وتقاليد البلاد المفتوحة كما افتتن بها العباسيون من بعدهم.



الشعر فى عصر بنى أمية

نلاحظ أن تطور الشعر أبطأ من تطور النثر، وذلك لأن الشعر يقوم على العاطفة وهى قائمة على ملكة فنية بطيئة التطور، وإن كانت خالدة فى أصلها بخلاف النثر فهو قائم على العقل وهو خاضع وقابل للتطور أسرع من الشعر لذلك كان النثر أسبق وأسرع وبخاصة أن النثر لغة ثقافية وهذه تسير بسرعة وسهولة عن تطور الطبع والفن الشعرى منذ صدر الإسلام وجدنا الأحاديث والخطابة تشربت روح الإسلام واستوعبتها، ولكن الشعر لم يستقم إلا بعد ذلك بجيل، وكذلك الشأن فى العصر العباسى نجد الخطابة والكتابة والتأليف العلمية تجرى إلى التطور والرقى فى حين أن الشعر المحدث أخذت تتنازعه عوامل تجذبه إما إلى الوراثة وإما إلى الأمام، ولم يسلم مطلقا من التقليد.

ونلاحظ أن رجال النثر يكونون فى العادة أحسن ثقافة من الشعراء إلا القليل النادر «كأبى تمام والمنتبى والمعرى» وهذه الميزة الثانية تكون لنا مفتاح هذه المسألة؛ النثر أسرع إلى التطور وأطوع للاستimalه لأمر منها: أن الشعر، لأنه أدخل فى باب الفنية، يقوم على التقليد والالتفات إلى الوراثة فيتوقف ويبطئ فى السير، وأما النثر فلأنه أدخل فى باب العلمية والنفعية نجده أشد اتصالا بالحياة الجارية والمسائل الواقعية يحرص عليها، ويعبر عنها مجارة للواقع فمثله فى الغالب ابتكارية تعتمد إلى الجديد المستحدث وتنظر إلى الأمام وقلما تلتفت إلى الماضى.

٢ - ومنها أن الشعراء أنفسهم لاعتزازهم بخاصتهم الفنية لا يعنون بالثقافة وما تتطلبه المعانى الجديدة من تحصيل ومجارة فيقعون بفنهم عند القديم، وإذا وقفنا عند الخطابة فى صدر الإسلام نجد أنها قد شربت روح الإسلام وتعاليمه عن الشعر لأنها تعبير مباشر صريح عن تقاليد الدين وملابساته بخلاف الشعر فهو محتاج إلى ملكة نفسية فنية تتكون وتنضج قبل أن تنشأ وتثمر. يجتهد الكاتب دائما أن يظفر بنصيب من الثقافة والتهديب الفنى يقابل ما عند الشعراء من موهبة فنية تبدو فى القريض.

٣ - ومنها أن الصورة الفنية اللفظية للشعر أبطأ تطورا لحاجتها إلى تجديد فى الأوزان والقوافى والتقاليد الخاصة بمطالع القصائد وختامها وصورها الخيالية المبتكرة، وهذه يكون

من العسير التجديد فيها لأن صور الشعر نوع من التبلور الفكرى أو النفسى أو الخيالى ، وذلك لا يتم سريعاً بخلاف النثر فلأنه يتحلل من الوزن والقافية يفرغ لمعانيه وأفكاره ومعاييره التى يجد التصرف فيها أسهل وأيسر فصعوبة النثر فى معانيه وصعوبة الشعر فى صوره وموازينه .

٤ - ومنها أن الشعر هو الصورة الساذجة للحياة الإنسانية وهى صورة عاطفية ، ولكن النثر هو الصورة العقلية المتحضرة التى تأتى متأخرة - فالشعر ثم الخطابة ثم الكتابة ، ومعنى ذلك أن هذه الصورة الساذجة - لأنها لغة العاطفة والعاطفة خالدة مهما تتغير أشكالها - تبقى خالدة أى باقية قلما تتطور وتستميل وأن الصورة الحضريّة الطارئة تصور العقل ، والعقل نهم جبار متجدد تكون صورته اللفظية كذلك متجددة ، إذاً العقل يسبق العاطفة فى التطور.

هذه المسألة تستلزم أن نؤرخ للنثر قبل الشعر مسaire لهذا التطور السريع فى النثر تبعاً لأحداث التاريخ ، ولكن لما كان الشعر أسبق إلى الوجود ، وكان الشعر الإسلامى إلى حد ما امتداداً للشعر الجاهلى ، وكان الفن الأهم من النثر وهو الكتابة قد تأخر فى الوجود إلى أول القرن الثانى ناسب أن نستمر فى تاريخ الشعر تاركين الكلام على النثر إلى ما بعد ذلك . فإذا وقفنا عند النشاط الأدبى فى العصر الأموى وجدناه ينتهى إلى الشعر والخطابة والكتابة ، ثم حركة التدوين والنقل التى بدأت ناشئة فى هذه الفترة وهذه الأنواع كلها كانت ثورة على نظام وضع ليقوم الديمقراطية الإسلامية مكان الأرستقراطية القرشية أو القوة الجاهلية .

فقام الأمويون يعيدون مجد «قريش» أو مجد الأمويين وقيمونه ملكاً عضواً ، ولذلك أثره فيما حدث من أحزاب وعصبيات استلزمت السيف والقلم ، وانتهت بمصرع الأمويين حينما قامت الأرستقراطية الهاشمية ، ومعها الفارسيون يقيمون مجداً على أنقاض هؤلاء وهكذا دواليك ، ونقول إن هذا الأدب سياسى مقابلين بينه وبين الأدب الجاهلى الصحراوى والأدب العباسى الحضرى أو العلمى لقيامه على عناصر اجتماعية مدنية وفلسفية كما هو واضح من تاريخ الأدب العباسى نفسه .

خصائص الشعر الأموى

وللشعر الأموى ميزاته الإسلامية الطارئة، ونجملها هنا فى الآتى :

١ - من الناحية الموضوعية : (فنونه)

وإنما نريد بالناحية الموضوعية هذه الفنون التى تناولها الشعر الأموى ، وكان فيها جديداً أو كالجديد ، وسواء أكانت الجدة إيجابية بإيجاد فنون حديثة أم سلبية بإماتة فنون أو تركها كما هى ، وإن هذا الغرض الأخير لم يحدث وليس من طبيعة الأشياء أن يحدث مطلقاً، لذلك كان من الحق علينا أن ندير البحث فى هذه الناحية حيث النظام الآتى :

١ - الفن الجديد.

٢ - الفن الذى مات.

٣ - الفنون المتجددة.



الشعر والشعراء

عوامل نهضة الشعر فى عصر بنى أمية

حظى الفن الشعرى بنهضة كبيرة إبان حكم الأمويين لما توافر له من عوامل ساعدت على ازدهاره ونهضته ومن هذه العوامل:

عناية الخلفاء الأمويين:

كان خلفاء بنى أمية عربا خلصا لم تخالطهم شوائب العجمة، فكان لهم ذوقهم العربى المطبوع، وسليقتهم العربية الخالصة، فكانوا يهتمون بالشعر يستمعون إليه، ويتذوقونه، بل وينقدونه ويكافئون على الجيد منه. وطبيعى أن يلقى الشعر فى هذه الأجواء اليد التى ترعاه وتغدق عليه نهضة وازدهارا كبيرين.

ظهور الأحزاب السياسية:

أومأنا آنفا إلى ظهور الأحزاب السياسية فى ذلك العصر، وأشرنا إلى دورها فى الأدب، حيث خلقت هذه الأحزاب مجالات واسعة للقول فانبرى الشعراء يؤيدون حزبهم الذى ينتمون إليه، يشرحون مبادئه، ويدافعون عنه، وينتقصون خصومهم، ويدحضون حججهم. وقد خلف لنا العصر الأموى أشعارا كثيرة كانت نتاجا لهذا المعترك السياسى بين الأحزاب التى ظهرت على الساحة السياسية حتى إن الكميت بن زيد الأسدى جعل ديوانه «الهاشميات» وقفا للدفاع عن حزب الشيعة ومناصرتهم.

إحياء التراث العربى القديم:

نشطت فى هذا العصر فكرة إحياء التراث العربى القديم، ولا سيما الشعر الجاهلى والإسلامى، والعمل على تدوينه وحفظه ومدارسته، مما أوجد حلقة وصل بين شعراء هذا العصر، وأسلافهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، مما كان له دوره البالغ فى النهوض بالشعر والعمل على تنشيطه وإذاعته.

إحياء العصبية القبلية وخلق العصبية الأدبية:

عمل معاوية بن أبى سفيان منذ اعتلائه عرش الخلافة على إحياء العصبية القبلية القديمة والتى كان الإسلام قد قضى على أكثرها، وكان هدفه من ذلك الصنيع أن يشغل الناس عن أمر الخلافة.

كما عمل بعض الخلفاء على إحداث نوع من العصبية عند الشعراء أنفسهم فظهر ما عرف فى الأدب العربى باسم النقائض التى أبرز رجالها جرير والفرزدق والأخطل. وقد كان لهذه العصبية القبلىة والأدبىة أصداؤها فى ديوان الشعر الأموى.

الترف الذى عاش فىه الشعراء:

كان من سىاسة الأمويين التى انتهجوها أن يصرفوا الناس عن التفكير فى أمر الخلىفة بكل طرىقة ممكنة، وقد رأوا أن يحصروا أبناء المهاجرين والأنصار فى الحجاز (مكة والمدينة) وأن يمنحوهم من الأموال ما يجعلهم يعيشون فى ترف وبذخ يلهيهم عن الخلافة وكان نتيجة لهذا الترف أن ظهر ذلك الشعر الغزلى الذى يمثله عمر بن أبى ربىعة والأحوص والعرجى وسواهم.



موضوعات الشعر الأموى

عندما نتعرض لدراسة موضوعات الشعر فى عصر لاحق للعصر الجاهلى فإننا نميز بين نوعين من أغراضه : الأغراض القديمة أو التقليدية ، والأغراض الجديدة أو المستحدثة . وغالبا ما نذكر فى النوع الأول ما طرأ على أغراض الشعر القديمة من تطور ، وما لحقها من تجديد ، بينما نناقش فى النوع الثانى الظروف والعوامل التى دعت إلى وجود الغرض الشعرى المستحدث ، وليس العصر الأموى خارجا عن هذه القاعدة إذ يمكن تقسيم أغراض الشعر فيه إلى أغراض قديمة وأخرى جديدة .

الأغراض القديمة:

المديح: المدح هو من الأغراض الأصيلة فى ديوان الشعر العربى ، وقد كثرت قصائد المديح فى هذا العصر وزادت صلتها بالسياسة ، واتسعت لتشمل الخلفاء ، ورجال الأحزاب ، والأبطال والقادة ورجال السياسة . و بقيت معانى المديح القديمة باقية فى القصيدة الأموية ، وزادت عليها بعض المعانى الأخرى التى اقتضتها ظروف الحياة . يقول الدكتور شوقي ضيف : «والحق أن قصيدة المديح اختلفت فى هذا العصر بالقياس إلى صورتها القديمة لاختلاف الحياة العربية ، أو قل لتطورها وما حدث فيها من انقلاب سواء من حيث نظام الدولة ، أو من حيث تصور الناس للخلافة ، وما ينبغى أن يكون عليه الخليفة ، وكان الشاعر الأموى ما يزال يطلب التجديد والتغيير فى الإطار القديم لهذه القصيدة»^(١) . وقد حرص الشعراء على استجلاب المعانى الدينية وتضمينها قصيدة المديح ، يقول الفرزدق فى مدح الحجاج^(٢) :

ولم أر كالحجاج عونا على التقى	ولا طالبا يوما طريدة تابل ^(٣)
بسيف به لله تضرب من عصى	على قصر الأعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع	به ريبة بعد اصطفاك الزلازل

(١) التطور والتجديد ص ١٤١ .

(٢) ديوانه ص ٦٩٥ .

(٣) التابل : صاحب الثأر .

وكنا بأرض يا ابن يوسف لم يكن
وما تبتغى الحاجات عندك بالرشى
فما الناس إلا فى سبيلين منهما
سبيل لحق، أو سبيل لباطل

ومن مداح هذا العصر البارزين الشاعر الأخطل (غياث بن غوث) وأكثر مدائحه فى
عبد الملك بن مروان، وفيه يقول^(١):

وما الفرات إذا جاشت غواربه
وزعزعه رياح الصيف واضطربت
مسحنفر من جبال الروم يستره
يوما بأجود منه حين تسأله
مفترش كافتراش الليث كلكله
مقدما مائتى ألف لمنزلة
يغش القناطير يبنيها ويهدمها
حتى يكون لهم بألف ملحمة
وتستبين لأقوام ضاللتهم
فى حافيته وفى أوساطه العشر
فوق الجأجى من أذية غدر
منها اكافيف فيها دونه زور
ولا بأجهر منه حين يجتهر
لوقعة كائن فيها له جزر
ما أن رأى مثلهم جن ولا بشر
مسوم فوقه الرايات والقتر
وبالثوية لم ينبض بها وتر
ويستقيم الذى فى خده صعر

الهجاء:

ازدهر شعر الهجاء فى هذا العصر بسبب العصبية القبلية والأدبية التى عمد الأمويون
إلى بعثها وإحيائها، فضلا عن أحداث السياسة التى جعلت من الأحزاب جماعات
متباغضة تهجو كل واحدة منها أختها.

ولعل الجديد فى شعر الهجاء فى هذا العصر أنه تحول إلى عمل منظم بين أفراد أو
مئات، فالشعراء يجتمعون فى الأسواق الأدبية (كسوقى المربد والكناسة) ينشدون أشعار
الهجاء، والناس يلتفون حولهم مستمعين معجبين بإتقان.

وقد كان الهجاء فى بعض الأحيان يتحول إلى ضرب من اللهو الذى يراد به إرضاء
الجماهير دون أن يكون القصد فيه ذم المهجو أو انتقاصه.

وكان من تطور الهجاء فى ذلك العصر أن ظهر ما عرف فى الأدب العربى بالنقائض
التى اشتهر بها الفرزدق وجريز والأخطل.

(١) كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني.

هذا ويمكن تقسيم شعر الهجاء فى عصر بنى أمية إلى نوعين :
 الهجاء الشخصى أو الفردى : وهو ما كان الدافع إليه بواعث شخصية.
 والهجاء السياسى : وهو ما كان الدافع إليه بواعث سياسية.
 فمن الهجاء الشخصى قول الشاعر أبى جلدة اليشكرى فى رجل اسمه حصين بن منذر :

لعمرك إنى يوم أسند حاجتى	إليك أبا ساسان غير مسدد
فلا عالم بالغيب من أين ضرّه	ولا خائف بث الأحاديث فى غد
فليت المنايا حلقت بى صروفها	فلم أطلب المعروف عند المصرد
فلو كنت حرّاً يا حصين بن منذر	لقمت بحاجتى ولم تتبدل
تجهمتنى خوف القرى وأطرحتنى	وكنت قصير الباع غير المقلد
ولم تعد ما قد كنت أهلاً لمثله	من اللؤم يابن المستذل المعبد ^(١)

ومن الهجاء السياسى ما قيل فى معاوية بن أبى سفيان :

(معاوى) إننا بشر فاسجح	فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا وجذذتمونا	فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمة هلكت ضياعا	يزيد أميرها وأبو يزيد

الرثاء:

الرثاء هو ما قيل فى بكاء الميت والتفجع عليه.
 وهو غرض قديم فى الشعر العربى يتسم بصدق العاطفة وحرارتها لا سيما إذا كان المتوفى قريباً أو صديقاً أو عزيزاً.
 ولعل السمة العامة فى الرثاء متقاربة فى أكثر العصور الأدبية فهو يتناول أخلاق المرثى وفضائله.
 وقد رثى شعراء هذا العصر من مات من الأفراد كما رثوا الخلفاء والقواد والوزراء ومن إليهم.

(١) الأغاني ج ١١ ص ٣٠٤.

يقول الأبيرد بن المعذر الرياحي يرثى أخاه بريداً^(١):

تطاول ليلى لم أنمه تقلباً	كأن فراشى حال من دونه الجمر
أراقب من ليل التمام نجومه	لدى غاب قرن الشخص حتى بدا الفجر
تذكرتُ قرماً بأنّ منا بنصره	ونائله يا حبذا ذلك الذكر
فإن تكن الأيام فرقن بيننا	فقد عذرتنا فى صحابته العذر
وكننت أرى هجراً فراقك ساعة	إلا لا بل الموت التفرق والهجر
أحقاً عباد الله أن لست لاقياً	بريدا طوال الدهر ما لألأ العفر ^(٢)
فتى ليس كالفتيان إلا خيارهم	من القوم جزل لا قليل ولا وعر
فتى إن هو استغنى تخرق فى الغنى	وإن كان فقر فلم يدع مثنه الفقر
وسامى جسيمات الأمور فنالها	على العسر حتى أدرك العسر اليسر
ترى القوم فى العزاء ينتظرونه	إذا شك رأى القوم أو حزب الأمر ^(٣)

الغزل:

الغزل غرض قديم قدم الشعر العربى وقد كان الجاهليون يستفتحون به قصائدهم بهدف جذب القلوب واستمالة الأسماع.

وقد عرف فى عصر بنى أمية نوعان من الغزل: نوع يأتى فى بدء القصائد على سبيل التقليد للأقدمين، وآخر يأتى فى قصائد مستقلة.

وقد اشتهر فى هذا العصر جماعة من شعراء الغزل عرف كل واحد منهم بامرأة نسب إليها مثل جميل بثينة، وكثير عزة، ومجنون ليلى وغيرهم.

كما وجد ذلك اللون من الغزل الذى عرف باسم الغزل العذرى وهو غزل خالص عفيف ينسب إلى قبيلة عذرة.

ومن أشهر قصائد الغزل الأموية رائعة أبى صخر الهذلى التى يقول فيها^(٤):

ليلى بذات البين دار عرفتھا	وأخرى بذات الجيش آياتھا عفر
فكأنهما ملآن لم يتغيرا	وقد مر بالدارين من بعدنا حصر

(١) الأغاني ١٣/١٥٣، والعقد الفريد ٣/٢٧٥، وأمالى اليزيدى.

(٢) المراد ما دكت الأطباء أذنابها، وهذا كناية عن التأبید.

(٣) حزب الأمر: أشد.

(٤) شعراء أمويون ص ٩٣ وما بعدها.

وقفت برسميها فلا تنكرا
وفي الدمع إن كذبت بالحب شاهد
صبرت فلما عال نفسى وشفها
إذا لم يكن بين الحبيبين ردة
إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنى
إذا ذكرت يرتاح قلبى لذكرها
صدفت وعينى دمعها سرب هم
يبين ما أخفى كما بين البذر
عجاريى تأتى به غلب الصبر
سوى ذكر شىء قد مضى درس الذكر
نسيم الصبا من حيث يطلع الفجر
كما انتفض العصفور بلله القطر

الوصف:

شاع شعر الوصف فى هذا العصر حيث وصف شعراء بنى أمية كل ما وقعت عليه
نواظرهم من أرض وسماء وصحراء، وإبل وحيوانات وطيور، كما وصفوا الخمر، والقصور
والبساتين، والجيوش والأسلحة، وقد أتم وصفهم بروعة التصوير وابتكار المعانى.
يقول المقنع الكندى فى وصف العلم^(١):

قلم كخرطوم الحمامة مائل
يسم الحروف إذا يشاء بنائها
من صوفة نفت المداد سخامه
يخفى فيقصم من شعيرة أنفه
وبأنفه شق تلاءم فاستوى
مستعجم وهو الفصيح بكل ما
وله تراجمة بالسنة لهم
مستحفظ للعلم من عنامه
ليانها بالنقط من أرسامه
حتى تغير لونها بسخامه
كقلامه الأظفور من قلامه
سقى المداد فزاد فى ثلامه
نطق اللسان به على استعجابه
تبيان ما يتلون من ترجمه

الأغراض المستحدثة

المدارس الجديدة فى الشعر الأموى

شهد هذا العصر من الأحداث والتطورات ما أدى إلى ظهور بعض الأغراض المستحدثة
فى الشعر الأموى، وقد حمل لواء كل غرض منها جماعة من الشعراء كونوا اتجاها خاصا
أو مدرسة شعرية.

(١) الحيوان للجاحظ ٦٥/١، وشعراء أمويون ص ٢١٢، ٢١٣.

مدرسة شعراء السياسة:

وقد نشأت هذه المدرسة الأدبية كرد فعل للصراع السياسى والتنازع بين الأحزاب، ويمثل هذه المدرسة جماعة من الشعراء عرفوا بالانتماء إلى حزب سياسى بعينه فمن هؤلاء الكميت بن زيد الأزدي شاعر الهاشميين، وعبد الله بن قيس الرقيات شاعر الحزب الزبيرى، وقطرى بن الفجاءة شاعر الخوارج، ومن شعراء الحزب الحاكم، وهم كثرة، عدى ابن الرقاع، وعبد الله بن خارجة.

وقد سبق من ذكر الأحزاب السياسية وأخبار شعرائها ما يغنى عن إعادة ذكره هنا فارجع إليه فى موضعه.

لكن نورد هنا نموذجا يمثل ذلك الشعر السياسى، يقول الكميت فى مدح آل البيت :

إلى الله فيما نالنى أتقرب	إلى النفر البيض الذين بحبهم
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب	بنى هاشم رهط النبی فإننى
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب	خفصت لهم من الجناح مودة
وما لى إلا مذهب الحق مذهب	وما لى إلا آل أحمد شيعة
يرى الجور عدلا لا إلى أين تذهب	فقل للذى فى ظل عمياء جونة
ترى حبهم عارا على وتحسب	بأى كتاب أم بأى سنة
وما ورثتكم ذلك أم ولا أب	وقالوا أورثناها أبانا وأمنا
سفاها وحق الهاشميين أوجب	يرون لهم حقا على الناس واجبا
لقد شركت فيه بكيلا وأرحب	يقولون لم يورث ولولا تراثه

مدرسة شعراء النقائص:

النقائص جمع نقیضة وهى مأخوذة من النقض وهو فى الغزل الحل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [سورة النحل: آية ٩٢]، وفى البناء الهدم.

والنقائص قصائد ظهرت فى العصر الأموى تقوم على الفخر والهجاء، وطريقها أن يقوم أحد الشعراء بنظم قصيدة مفتخرا بنفسه هاجيا صاحبه وقومه، فينظم الشاعر الآخر قصيدة على وزنها ورويها، عادة، يعارض فيها قول الأول وينقضه.

وقد كان للصراع القبلي الذى عمد الأمويون إلى إحيائه دوره فى إذكاء هذه النقائض وكثرتها. واشتهر من شعراء النقائض فى هذا العصر الفرزدق وجريير والأخطل.

وتأتى أهمية النقائض فى هذا العصر من عدة جوانب:

١ - أنها تمثل تطورا جديدا فى الفكر العربى لاعتمادها على طرق الاستدلال والبرهنة فى المسائل والمشاكل.

٢ - أن النقيضة كانت تعد عملا أدبيا يستغرق جهدا معقدا لاتساع فصولها وموضوعاتها وتعرضها لشئون الأمة الاجتماعية والسياسية والعقلية.

٣ - أن هذا الفن الشعري استعان أصحابه بتوليد المعانى وتركيبها على نحو غير معهود فى العصرين السابقين لعصر بنى أمية^(١).

نموذج لفن النقائض بين الفرزدق وجريير:

قال الفرزدق:

إن الذى سمك السماء بنى لنا	بيتا دعائمه أعز وأطول
بيت بناه لنا المليك وما بنى	حكم السماء فإنه لا ينقل
بيتا زارة محتب بفنائيه	ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا	برزوا كأنهم الجبال المثل
لا يحتبى بفناء بيتك مثلهم	أبدا إذا عد الفعال الأفضل
من عزهم جحرت كليب بيتها	زربا كأنهم لديه القمّل
ضربت عليه العنكبوت بنسجها	وقضى عليك به الكتاب المنزل
أين الذين بهم تسامى دارما	أم من إلى سلفى طهية تجعل
أحلامنا تزن الجبال رزانة	وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن أردت بنائها	نهلان ذا الهضبات هل يتحلحل؟
يا بن المراغة أين خالك؟ إننى	خالى حبيش ذو الفعال الأفضل
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم	وإليه كان حباء جفنة ينقل
إننا لنضرب رأس كل قبيلة	وأبوك خلف أتانه يتنقل
وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا	إن اللئيم عن المكارم يشغل ^(٢)

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز وشرح النقائض.

(٢) النقائض لأبى عبيدة ١/١٦٨.

فرد عليه جرير:

أعددت للشعراء سما ناقعا لما وضعت على الفرزدق ميسمى أخزى الذى سمك السماء مجاشعا ولقد بنيت أخس بيت يبتنى إنى بنى لى فى المكارم أولى أعيتك ماثرة القيون مجاشع وأمدح سراة بنى فقيم إنهم إنى انصببت من السماء عليكم أحلامنا تزن الجبال رزاة فارجع إلى حكى قريش إنهم إن الذى سمك السماء بنى لنا	فسقيت آخرهم بكأس الأول وصفا البعيث جدعت أنف الأخطل وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل فهدمت بيتكم بمثل يذبل ^(١) ونفخت كيرك فى الزمان الأول فانظر لعلك تدعى من نهشل قتلوا أباك وثأره لم يقتل حتى اختطفتك يا فرزدق من عل وي فوق جاهلنا فعال الجهل أهل النبوة والكتاب المنزل عزا علاك فما له من منقل
---	---

مدرسة شعراء الشعوبية:

يقصد بالشعر الشعبى : ذلك الشعر الذى يدعو إلى تفضيل الجنس غير العربى وربما الانتقاص من شأن العرب والتعريض بهم.

وقد عرف بنو أمية بعروبتهم الخالصة وتعصبهم لها فعملوا على إقصاء الموالى من الفرس وغيرهم عن شئون الدولة مما أورث فى نفوس هؤلاء حقدا دفيناً على العرب، فانطلقت ألسنتهم مفتخرين بأصولهم غير العربية.

ومن شعراء هذه المدرسة إسماعيل بن يسار، ومحمد بن يسار، وإبراهيم بن يسار، وزيد الأعجم، ونصيب وغيرهم.

يقول إسماعيل بن يسار:

رب خال متوج لى وعم إنما سمى الفوارس بالفرس فاتركى الفخر يا أمام علينا	ماجد محتدى كريم النصاب مضاهاة لرفعة الأنساب واتركى الجور وانطقى بالصواب
---	---

(١) يذبل اسم جبل.

واسألني إن جهلتِ عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نرعى بناتنا وتدسون سفاها بناتكم في التراب

سمات الشعر الأموي وخصائصه

الألفاظ:

مال شعراء هذا العصر إلى سهولة الألفاظ وجر الغريب منها، وقد ساعد على ذلك عدد من العوامل منها:

- ١ - التأثر بألفاظ القرآن الكريم.
 - ٢ - شيوخ العشق في البوادي العربية.
 - ٣ - انتشار الغناء في الحواضر والمدن.
- استمع إلى هذه الألفاظ السهلة في قول جرير:

بان الخليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا
يا أم عمرو جزاك الله صالحة ردى على فؤادي كالذى كان
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى لا أستطيع لهذا الحب كتماننا
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت بأسباب دنياك من أسباب دنيانا

لكن بقى جماعة من الشعراء متمسكين بغرابة الألفاظ واستجلاب الشاذ منها ومن هؤلاء ذو الرمة، ورؤبة بن العجاج.

يقول هذا الأخير في أرجوزة له واصفا إحدى المغازات^(١):

وقاتم الأعماق خاوى المخترق مشتبه الأعلام لماع الخفق
يكل وفد الريح من حيث انخرق شأز بمن عوه جدد المنطلق
ناء من التصبيح نائي المغتبق تبدو لنا أعلامه بعد الغرق
فى قطع الآل وهبوات الدقق خارجة أعناقها من معتنق^(٢)

(١) ديوانه ص ١٠٤.

(٢) القاتم: الأسود، الأعماق: الأطراف، مخترق الرياح: مهيها، الخفق: السراب، انخرق: هب، شأز: غليظ، نائي المعتنق: ليس فيه ماء يورده بالعشية، الآل: السراب، الدقق: التراب الدقيق.

الأساليب:

كانت أساليب الأمويين رصينة محكمة النسيج، قوية العبارة، فيها تأثر بالقرآن الكريم، ومصادر الثقافة الإسلامية، كما اتسمت بالبعد عن المحسنات البديعية المتكلفة.

المعاني:

كانت معاني الشعراء في ذلك العصر فيها تكرار لمعاني السابقين إلا أن شعر النقائض والشعر السياسي قد عرف توليد المعاني وابتكارها وقد خلت معانيهم من المبالغات، واتسمت بقرب التناول وترتيب الأفكار.

وقد ظهر طابع القص والحوار في بعض شعر الغزل ولا سيما عند عمر بن أبي ربيعة، يقول في إحدى قصائده التي تصور زيارته لإحدى صاحباته^(١):

فقامت كئيبا ليس في وجهها دم	من الحزن تزدري عبرة تتحدر
فقامت إليها حرتان عليهما	كساءان من خز دمعتي وأخضر
فقالَت لأختيها أعينا على فتى	أتى زائرا والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا	أقلّي عليك اللوم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكرا	فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون ما كنت أتقى	ثلاث شخوص كاعبان ومعصر



(١) ديوانه ص ٣.

من أعلام الشعراء
فى العصر الأموى

المقنع الكندى

سمى هذا الشاعر بالمقنع لأنه أحد ثلاثة كانوا لا يرون مواسم العرب إلا مقنعين يسترون وجوههم حذرا على أنفسهم من النساء، وخوفا من العين، وهم أبو زيد الطائي والمقنع الكندى ووضاح اليمى، ويقول ياقوت الحموى: «كان حسن الصورة فكان إذا دخل مكة دخلها متنكرا لجماله».

ويقول ابن قتيبة: «كان من أجمل الناس وجها وأمدهم قامة، وكان إذا سفر عن وجهه يقع (أى أصيب بالعين) فكان يتقنع دهره فسمى بالمقنع». هو محمد بن ظفر بن عمير بن أبى شمر ينتمى نسبه إلى يعرب بن قحطان وهو من بيت شرف وسؤدد فقد كان جده سيد كندة.

وقد كان لانتساب الشاعر إلى كندة ونشؤه فى أسرة لها مقام الرياسة، وفى بيت عرف المجد والسؤدد، كان لذلك أثره فى تربيته وسلوكه وطباعه وخلقه، ولعل صفة الكرم التى عرف بها وسماحة اليد التى لازمته طوال حياته، واستجابته لكل سائل، وإتلافه ما خلفه له أبواه من مال نتيجة لهذه النشأة.

والمقنع كما تجمع مصادر ترجمته شاعر مقل، وكما تؤكد هذه الحقيقة مصادر الأدب التى ترجمت له أو استشهدت بشعره، وقد انحصرت أغراضه فى بعض قصائده المشهورة أو بعض إحساساته بالشيب والكبر، ومعالجته لحالات نفسية كان يعانىها ويشعر بضغطها عليه، وهو يعانى تجربة الحياة.

كانت ولادة المقنع سنة خمس وستين ووفاته نحو سنة مائة وثمان وعشرين^(١).

نماذج من شعره:

يقول متحدثا عن نفسه^(٢):

يعاتبني فى الدين قومى وإنما	ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
ألم ير قومى كيف أوسر مرة	وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا
فما زادنى الإقتار منهم تقربا	ولا زادنى فضل الغنى منهم بعدا
أسد به ما قد أحلوا وضيعوا	ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

(١) شعراء أمويون ص ١٩٣، وما بعدها.

(٢) الحماسة البصرية ج ٢ ص ٣٠، ٣١.

وفى جفنة ما يغلق الباب دونها
وفى فرس نهد عتيق جعلته
وإن الذى بينى وبين بنى أبى
أراهم إلى نصرى بطاء وإن هم
فإن يأكلوا لحمى وفرت لحومهم
وإن ضيعوا عنى حفظت غيوبهم
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بى
وإن هبطوا غورا لأمر يسوءنى
فإن قدحوا لى نار زند يشيننى
وإن بادھونى بالعداوة لم أكن
وإن قطعوا منى الأواصر صلة
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
فذلك دأبى فى الحياة ودأبهم
لهم جل مالى إن تتابع لى غنى
وإنى لعبد الضيف مادام نازلا
على أن قومى ما ترى عين ناظر
بفضل وأحلام وجود وسؤدد

ومن قوله المشهور^(١):

مكللة لحما مدفقة ثردا
حجابا لبيتى ثم أخدمته عبدا
وبين بنى عمى لمختلف جدا
دعونى إلى نصر أتيتهم شدا
وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن هم هووا غيى هويت لهم رشدا
زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
طلعت لهم ما يسرهم نجدا
قدحت لهم فى نار مكرمة زندا
أبادهم إلا بما ينعت الرشدا
وصلت لهم منى المحبة والودا
وليس كريم القوم من يحمل الحقدا
سجيس اللبالي أو يزيروننى اللحدا
وإن قل مالى لم أكلفهم رفا
وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا
كشيبهم شيبا ولا مردهم ردا
وقومى ربيع فى الزمان إذا شدا

نزل المشيب فأين تذهب بعده؟
كان الشباب خفيفة أيامه
ليس العطاء من الفضول سماحة
وقد ارعويت وحن منك رحيل
والشيب محمله عليك ثقل
حتى تجود وما لديك قليل

أبو صخر الهذلى

من الشعراء الذين ترددت قصائدهم فى المحافل ، وامتدت شهرتهم إلى كل مكان ،
وبقيت أبياتهم موضع استشهاد طيلة قرون ، أبو صخر الهذلى عبد الله بن سلم السهمى

(١) حماسة أبى تمام ص ١٧٣٤ .

أحد بنى مرمض، وتجمع المصادر على أن هذا النسب القصير على غير المعتاد في ذكر الأنساب، هو ما عثر عليه بالنسبة لهذا الشاعر الذى ظلت أنفاسه وأشواقه تعبر الزمن بلا حواجز، وتدخل القلوب بلا استئذان.

وأبو صخر الهذلي شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية، وكان مواليا لبنى مروان، متعصبا لهم، وله في عبد الملك بن مروان مدائح وفي أخيه عبد العزيز، وعبد العزيز بن خالد بن أسيد مدائح أخرى، وقد جر عليه حبه لبنى أمية السجن عندما منعه ابن الزبير عطاءه لعلمه بمولاته للأمويين، فقال: علام تمنعني حقا لي وأنا مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثا، ولا أخرجت من طاعة يدا؟!! قال: عليك بنى أمية فاطلب عندهم عطاءك، قال: إذا أجدهم سباط الفهم، سمحة أنفسهم، بذلاء لأموالهم، وهابيين لمجنديهم، كريمة أعرافهم، شريفة أصولهم، زاكية فروعهم قريبا من رسول الله ﷺ. نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نسبوا بأذنان ولا وشائط^(١) ولا أتباع، ولا هم في قريش كفقعة القاع، لهم السؤدد في الجاهلية، والملك في الإسلام، لا كمن لا يعد في غيرها ولا نغيرها، ولا حكم آبائهم في نغيرها ولا قطميرها، ليس في أحلافها المطيبون، ولا من ساداتها المطعمون، ولا من جودائها الوهابون، ولا من هاشميينها المنتخبون، ولا عبد شمسها المسودون، وكيف تقابل الرؤوس بالأذنان؟ وأين النصل من الجفن؟ والسنان من الزج؟ والزنابي من القدامى؟ وكيف يفضل الشجع على الجواد؟ والسوقة على الملك؟ والمجيع نجلا على المطعم فضلا؟

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائضه ثم سجنه لمدة عام. ولما ولي عبد الملك بن مروان وحج لقيه أبو صخر، فلما رآه عبد الملك قربه وأدناه وقال له: إنه لم يخف على خبرك ولا ضاع لك عندى هواك ولا مولاتك. كان أبو صخر شاعرا تميز بطابع شعري معروف، والتزم بتراكيب فنية وبناء شعري متميز وأنجز بعض المهمات الشعرية التي تركت على وجد تراكيبها سمات الذوق النقي، والظهر العفيف، والسلاسة الفنية الصادقة^(٢).

نماذج من شعره:

عفت ذات عرق عصلها فرئامها فضحياؤها وحشى قد أجلي سوامها
إلى عقد البیضاء من جمل أفقرت وكان بها مصطافها ومقامها

(١) وشائط: اختلاط في نسبهم.

(٢) راجع شعراء أمويون ص ١١، وما بعدها.

سوى أن مرسى خيمة خف أهلها
إذا اعتجلت فيها الرياح فأدلجت
فإن معاجى للخيام وموقفى
لجهل ولكنى أسلى زمانه
وأشفى حوى باليأس منى قد ابتري
ولله شعبا طيبة شعث بها
من القاصرات الخط وفى السير كاعب
صراحية لو تدرج الذر أندبت
كأن على أنيابها من رضابها

وقال فى الغزل:

عذبٌ مُقْبَلُها خدل مخلصها
سود نوائبها بيض ترائبها
شنب مئاغرها يرضى معاشرها
غيل مقيدها حال مقلدها
درم مرافقها سهل خلائفها
طفل أناملها سمح شمائلها

بابهر محلال وهيهات عامها
عيشا جرى فى جانبها قمامها
بوانية البندين بال ثمامها
يضعف أسرار الفؤاد سقامها
عظامى كما يبرى الرديع هيامها
بما قد ترانى دارها ولمامها
سراج الدجى يروى الظمآن نسامها
على جلدها خود عميم قوامها
سبيئاً نفى الصفراء عنها أيامها

كالدعص أسفلها مخصورة القدم
محض ضرائبها صنعت على الكرم
لذ مناشرها تشفى من السقم
بض مجردها لفاء فى عمم
يروى معانقها من بارد النسم
ذو العلم جاهلها ليست من القزم



النثر الفنى

عوامل ازدهار الخطابة فى عصر بنى أمية

ازدهرت الخطابة فى هذا العصر ازدهارا عظيما، حيث استجد فى العصر الأموى من العوامل والمؤثرات التى أدت إلى نهضة هذا اللون من النثر الفنى.

ومن أهم هذه العوامل:

- وجود الأحزاب السياسية التى احتاجت إلى الخطابة لنشر آرائها وعرض حججها، وردع خصومها.
- كثرة الفتوح الإسلامية التى تطلبت خطباء لسنا يقومون بأمر الدعوة إلى دين الله وبث تعاليمه فى البلاد المفتوحة.
- اندلاع كثير من الثورات التى تناوئ الحكم الأموى وتعاديه.
- بقاء الفطرة العربية السليمة وقرب عهد الناس بالدين الإسلامى الحنيف. كل هذه العوامل وغيرها كانت سببا فى قوة الخطابة الأموية وازدهارها، أما الموضوعات التى تناولها الخطباء فأهمها:
- تهنئة الخلفاء والولاة أو مبايعتهم.
- الدعوة إلى اعتناق مبادئ الأحزاب السياسية.
- الانتصار للعصبيات القبلية.
- الدعوة للخروج على الحزب الحاكم، وذلك لدى خطباء الأحزاب.
- وإلى جانب الموضوعات التقليدية كخطب الوعظ والنكاح والمناسبات الاجتماعية.

سمات الخطابة الأموية:

- البدء بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة والتسليم على نبيه ﷺ.
- العناية بالألفاظ وبعدها عن المبتذل والغريب.
- رصانة الأساليب وقوتها وإحكامها.
- التأثر بالقرآن الكريم والسنة الشريفة.
- تقسيم الخطبة إلى فقرات، والتزام السجع بعض الأحيان.

نموذج للخطابة الأموية:

لما تولى زياد البصرة جمع أهلها وخطبهم قائلاً:

أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله إلى النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه؛ من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله.

وهذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوطة في النهار المبصر، والعدد غير القليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل، أو غارة النهار؟ قربتم القرابة، وبعادتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس النكر، أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه؟! صنع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا. إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: اللين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإنى لأقسم بالله لأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد، فقد هلك سعيد أو تستقيم قناتكم.

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبته، فمن غرق قوما غرقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.



الفن الجديد فى العصر الأموى

هو الشعر السياسى ونعنى به ذلك الذى يتعلق بنظام الحكم :

أولاً - وتنهض به الأحزاب التى ترى فى الحكم نظاماً خاصاً وهذا الفن جديد حقاً فى الإسلام، وفى العصر الأموى خاصة إذا نظرنا إلى العصر الجاهلى رأينا شعراً يصدر الاختلاف فى الآراء ووجدنا نقائض، ولكنها كانت تدور حول مسائل اجتماعية شخصية كتفضيل قبيلة أو شخص على شخص آخر فلما جاء الإسلام وتحققت النهضة حدثت المناقضة أول الأمر بين دين أو نظام جديد للعرب وللبشر، ونظام آخر وثنى أو استبدادى قبلى قديم، ثم بين الإسلام يمثله العرب وغيره يمثله العجم، ولكن ذلك الفن كان ناشئاً ومبهماً وكان من بين المسلمين وغيرهم فلم يكن واضحاً ولا محدود المعالم.

ولكننا فى العصر الأموى أمام نظام إسلامى داخلى فيه هذه الأحزاب ذات الآراء المختلفة فى أصول الحكم، ونظام الدولة وهى أحزاب تتحارب باللسان وبالسنان ولكل حزب شعراؤه، وخطبائهم، وزعمائهم، ومجادلوه وقصاصه، وذلك أمر واضح نشأ - فى أقرب درجاته منذ صفين، وتكوين أحزاب الخوارج والشيعية والجماعة ثم الزبيريين والمهالبة وكان من ذلك أن نشأ جيل جديد تأدب بأدب الإسلام، وجدت حوادث سياسية فرقت المسلمين شيعاً لكل شيعة أسنتها.

هذا الشعر كان جديداً لأنه صورة حزبية جديدة، ولأن معانيه جديدة تقوم على الجدل الدينى والسياسى، ولأن أسلوبه خصب قوى جزل، ولأن الشعراء تفرقوا فيه فمنهم الأمويون أمثال «أبى العباس الأعمى، وغيره» ومنهم العلويون أمثال «النعمان بن بشير الأنصارى وغيره» ومنهم الخوارج أمثال «قطرى بن الفجاءة» وغيره، ومنهم الزبيريون أمثال «عبيد الله بن قيس الرقيات وغيره».

ويلاحظ أن مما أُرث الشعر السياسى حرص الأمويين على شعرائهم ومكافأتهم لهم، وبثهم روح المسابقة بينهم، وإغراء بعض الشعراء ببعض، وتبع ذلك اشتغال المتعلمين بالمفاضلة بين الشعراء وانقسامهم فى ذلك إلى أحزاب متأثرين بعوامل شتى مما هو معروف فى تاريخ النقد الأدبى.

الفن الذى مات أو كاد

هو فن الإلحاد، وهجاء الإسلام، وقد كان الإلحاد فناً عرفتة الجاهلية عند «طرفة بن العبد» فى معلقته كما هو معروف مشهور، كذلك كان هجاء الإسلام معروفاً عند شعراء مكة بعد هجرة الرسول وقيام مدرسة المدينة تناضل عن الإسلام وترد على هجاء القرشيين فى مكة، وكان هذا الهجاء موجهاً فى الغالب إلى المسلمين، ورثاء لقتلى المشركين، ولكنه لما استقر الإسلام ودخل فيه العرب لم يعد أحد يهاجم ولم يجرؤ أحد على الدعوة الإلحادية - دع مسألة الردة فقد كانت نكرة جاهلية لا خطر لها - فمات هذا الفن الشعرى، ولم يستطع أحد أن يتخذه موضوعاً شعرياً بحال - ولا تغرنا أبيات يقولها بعض الملحدين الخارجين فى الخمر والغزل، فذلك أمر لا ينفى هذه القاعدة لأنه خروج على الأصل المقرر.



الفنون المتجددة

وهى هذه الفنون القديمة التى عرفها الشعر منذ العصر الجاهلى ، ولكنها اكتسبت جدة فى هذه الفترة الأموية وصاحبها تطور نشأ عن عوامل جديدة، فالفخر، والحماسة، والمدح، والهجاء، والغزل، والرتاء، والعصبية، والخمریات كل ذلك كانت موجودة قبل الإسلام ولكن ظهور الإسلام ثم ما تبع ذلك من حوادث وقيام الأمويين وما لابس مدتهم من مقومات جديدة - أحالت هذه الفنون وأكسبت كلا منها خواص جديدة نلاحظ شيئا فيها فى إجمال إلى أن نفصلها فيما بعد.

الغزل:

الغزل الجاهلى كان وصفا حسيا يتناول جمال المرأة الجسمى غالباً، ويذكر أجزاءه كما يذكر أجزاء الفرس والناقة والحيوان الوحشى، وكان يتخذ موضوعاً لديباجة القصيدة، وتمهيداً لأغراض المدح، والذم، والوصف ونحوها، وقلما انفرد به أحد من فحول الشعراء وإن اختص به جماعة من المغمورين «كالمرقش الأكبر» وعبد الله بن العجلان، وعروة بن حزام العذرى، ومسافر بن أبى عمر القرشى، ومالك بن الصمامة - وإذا صح ما ينسب إلى «امرئ القيس» فإنه يكون قد اخترع القصص الغزلى كما جرؤ على الإفحاش فى شعره حتى قيل إنه تعهر. وفى الإسلام استحال هذا الفن بمقتضيات هذا العصر الجديد فوجد فيه - وبخاصة عند البدو - الغزل الصوفى أو النفسى الذى يقصد إلى جمال النفس وهجرة المرأة وصدھا والشكوى منها، كما كثرت القصص عند شعراء المدن ولا سيما «عمر بن أبى ربيعة» هذا الشئ ثم اختص جماعة من نابھى الشعراء وكونوا مدارس شتى كالعذريين، والواقعيين وذلك غير الغزل الصناعى الذى عرف به بعض الشعراء، وغير اتخاذ ديباجة القصيدة كما كان الشأن فى العصر الجاهلى، وقد ارتقى أسلوبه إلى درجة عظيمة لتلك العوامل التى ذكرناها كثيراً ولأسباب خاصة تذكر فيما بعد.

المدح:

وقد كان المديح فى الجاهلية يضافى على ذوى الفضائل البدوية مثل «العقل، والحزم، والكرم، والنجدة، والمروءة» كما كان المديح فى الجاهلية ينتظم الشمائل الآتية وهى

«الفراغة» وبسطة الجسم والسماحة «وكثر هذه الألوان من الشعر حتى صارت وسيلة من وسائل التكسب فابتذل ذلك وتحاماه بعض الأشراف، وقد عرف بالمدح من الشعراء «زهير، والنابعة، والأعشى وحسان بن ثابت، والحطيئة».

ولما جاء الإسلام، وخفقت راياته على الجزيرة العربية، وسطعت شمس، وكثر أتباعه توجه المديح إلى الرسول ﷺ وآله وأصحابه وخلفائه، وإلى مدح الدين نفسه، ثم استمر زمن بنى أمية فتوجه المديح إلى الخلفاء والأمراء والولاة رغبة، أو رهبة، واتخذ الخلفاء ورؤساء الأحزاب جماعة الشعراء صُحفًا لهم ينشرون آراءهم، ويدفعون عنها، وقد حدث تغيير في المعاني فتناولت الدين وفضائله، والنظام السياسى ومآثره، والخلق الإسلامى الفاضل، ورعاية مصالح المسلمين وحسن التدبير الحربى، والإخلاص للخلافة أو للحزب، أو للدولة، وما إلى ذلك من الأغراض والمعاني.

الهجاء:

الهجاء غرض من الأغراض المعروفة فى كل عصر من عصور الأدب العربى، ومعناه: ذكر المثالب والمعائب، ونفى الفضائل عن المهجو، ويكون ذلك فى أسلوب ساخر مع التهكم والاستهزاء الذى يدعو إلى السخرية والضحك، وهو خلاف السب والشتيم، والإفحاش فى القول مثل الذى عرف به الشاعر «جرير، والفرزدق، وبشار» وغيرهم كثير من الشعراء - وكان هذا الفن فى الجاهلية أقرب إلى النهج السوى المعقول حين تناوله «زهير، والنابعة، والأعشى، والحطيئة، وطرفة بن العبد البكرى» وغيرهم ممن تناولوا به الفضائل الرئيسية يشكون فيها، أو ينفونها، والردائل الرئيسية يثبتونها. ثم جاء الإسلام فسار على هذا المنهج واستحال دينيًا مثل الذى نراه لدى الشاعر «عبد الله بن رواحة» بيد أنه استحال وتحول سبًا فاحشًا، وإقذاعًا مرًا تناول الأعراض والعورات وذلك حين اعتمد عليه فحول الشعراء - ونقائض «جرير، والفرزدق» بوجه خاص مثل واضح لما ذكرناه آنفًا.

الفخر والحماسة:

الفخر والحماسة فنّان متصلان دائمًا، وإن افترقا، وذلك بأن الفخر يتحدث عن الماضى وأمجاده، أما الحماسة عن المستقبل فهو يبيث شعور القوة ويذيعه، ويفسره بين الناس والمجتمعات، فيقوم الفخر بتعداد فضائل الإنسان، وآله، وعشيرته، وقبيلته، وعائلته من

كرم، وشجاعة، ونجدة، وكثرة عدد وأصالة عُنُصر، فهو دفتر تاريخي يسجل ما حدث في الماضي الغابر مع الاعتزاز به، والفخر. ولكن الحماسة هي «فن القوة» الذي يعنى بإثارة الشعر الحربى، أو الثورى، أو الثبات فى بعض المواقف الخطيرة، فاتجاهه يكون للآتى ولكنهما مع ذلك يلتقيان، ويعيشان معاً فى النص الواحد، إذ يتخذ الشاعر من الماضي وسيلة للمستقبل يذكره على أنه تهديد للعدو، وإرهاب له وفى الوقت نفسه شحذ لهمم الشبان، وإيقاظ لمشاعره وعزائمه، ودفع له على اقتحام الصعاب وإضافة مآثر جديدة إلى المآثر الماضية لتزداد قوة ومتانة، فهما معاً «فن القوة الأدبية» وقد عاشا فى العصر الجاهلى على هذه المعانى وهى «الشجاعة، والنجدة، والكرم، والمروءة، والتلصص لدى الصعاليك» وقتل المماليك والانتصار فى الأيام المشهورة، والإكرام وقت «المَحَل» والقحط والجذب والأزمات الاقتصادية بلغة العصر. وذلك مثل ما فعل «عنتر»، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد البكرى، وحسان بن ثابت» واستحالت الحماسة ومنها «الفخر» دينية فى أيام «البعثة النبوية الشريفة» على صاحبها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام، والفتوح الأولى، فكانت تقوم إعلاء لكلمة الحق، والترغيب فى نيل الشهادة الدينية حتى كان «العصر الأموى» عاد الفخر الجاهلى وذلك لدى الشاعر «جرير بن الخطفى والفرزدق، والأخطل» وفى دينياً قوياً لدى الخوارج خاصة، وغزلياً لدى بعض الغزليين من أمثال الشاعر «عمر بن أبى ربيعة» ولعل «عمر بن أبى ربيعة» أخذ من الشاعر «امرىء القيس بن حجر الكندى» فكلا الشاعرين يفخر بحب النساء له وباقتحام الصعاب فى سبيلهن، وفى غير الرجال منه، وهكذا.

الرثاء:

الرثاء فن طبعى لأن الموت حق وسنة دائمة وهو مما لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عُنْزَان، وكان فى الجاهلية يقوم على ذكر مناقب الميت، مع إظهار التفجع والحزن والتلهف عليه، واستعظام المصيبة فيه - ومن عادة الجاهلية فى الرثاء كما يقول صاحب كتاب العمدة «ابن رشيق القيروانى» وضرب الأمثال بفناء الملوك العظام، والممالك الكثيرة، والأمم القوية والوعول الممتنعة فى قلل الجبال، والأسود الخادرة فى الغياض، والوحوش المنصرفة بين القفار والنسور، والعقبان، والحيات لبأسها وطول عمرها وهذا طبعى، فهذه هى المعانى، والصور البدوية الصحراوية التى يراها الأعراب، وشعرأوهم، وتقع تحت سمعهم وبصرهم آناء الليل وأطراف النهار، فلما جاء الإسلام، وسطعت شمس، وخفقت راياته، ورفرفت فوق سماء الجزيرة العربية كانت الأسوة برسول الله ﷺ، وخلفائه والأنبياء

السابقين، وأنه شيء مكتوب على الناس تعقبه حياة أرقى، وتلك المعانى بقيت بجانب المعانى القديمة زمن العصر الإسلامى، وإلى الآن وإن لم يأخذ «فن الرثاء» شهرة قوية فى هذه الحقبة من الزمن فهو على كل حال فن طبعى خالد.

الوصف:

وهو شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه فى الواقع لإحضاره فى ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به وهذا هو الأصل الذى جرى عليه أكثر العرب قديماً وقد يبالغ فيه لتحويل أمره أو تلميحه أو تشويبه أو نحو ذلك فيكون منه المقبول والممقوت. ولا سبيل إلى حصر ضروب الوصف عند العرب فإنهم وصفوا كل ما رأوه أو عانوه وخالط نفوسهم، فوصفوا من الحيوان الإبل وافتنوا فى ذلك بما لم تفتهم فيه أمة فى وصف نفيس لديها. ومن أبلغ وُصِفَ الإبل «طرفة»، ووصفوا الخيل فى ضروب خلقها وأحوال سيرها ومن أشهرهم فى ذلك «امرؤ القيس» وأبو داود الإيادى، ووصفوا أيضاً كواسر السباع، وأوابد الوحوش، وجوارح الطيور وصوادحها، وخشاش الأرض وهوامها، ووصفوا من النبات ضروبه، وشيائه، ومن السماء نجومها، وكواكبها، وسماؤها، وبروقها وأنوارها، وأمطارها ومن الأرض سهولها، وجبالها، ومرابعها، ومصايفها وخاصة الديار والأطلال والدمن والرسوم وتعفية الرياح والأمطار لآثارها وشبهوها أحياناً برقم الكتب، وصحائف الرهبان، وبالوشم على ظاهر السيد، وبالثوب الخلق أو المرقم ونحو ذلك - ووصفوا جمال الإنسان، وأخلاقه وطباعه وأحواله فى الظعن والإقامة، وأفعاله فى قتاله ونزاله ودفاعه بمختلف سلوكه. ونلاحظ من ذلك أن الوصف هو الباب الرئيسى الذى يصح أن يتناول جميع الأبواب الأخرى، وهذا الفن الذى قام فى معانيه وعناصره وموضوعاته على الحياة البادية تجده يلم بأخلاق وأعمال إسلامية زمن البعثة من حرب وسلم وفتوح ومغاز حتى إذا كان العصر الأموى نجده يصف الشعوب الأخرى والحروب الخارجية والمصارع السياسية وأدوات الحرب ومظاهر الترف النسبى، وأحوال العمران ومظاهر المدنية، وهذا أمر طبعى مادام الوصف صورة للحياة حوله.

العصبية:

لما كانت العصبية أساس الحياة الاجتماعية فى الجاهلية كانت فنون الحرب جميعاً من (مدح، وهجاء، خاصة، وفخر وحماسة، ورثاء) متأثرة بهذه الروح القديمة، ومتجهة

إليها، وقد حاول الدين كسر شر العصبية الجاهلية ولا سيما إلى آخر عهد «عمر بن الخطاب» ولكن العصبية عادت بسرعة أقوى منها في الجاهلية، واتسعت آفاقها فصارت فردية وأسرية وقبلية وحزبية، وعنصرية وسياسية، وخب الشعراء فيها ووضعوا، وكثر الشعر الذى يتصل بها، وليس الشعراء الأمويون إلا شعراء عصبيات مهما يكن نوعها حتى شعراء الغزل لم ينجوا من العصبيات السياسية أو المذهبية فى الفن والجنس، وهكذا كانت العصبية شرا مستطيرا على الدولة فذهبت بها آخر الأمر.

الخمريات:

وكان هذا الباب معروفاً فى الجاهلية قال فيه «امرؤ القيس، والأعشى، وحسان، وعدى بن زيد العبادى، وعمرو بن كلثوم، وعنترة» وغيرهم، ولعل «الأعشى» أكثرهم فيه لكثرة اتصاله بالحيرة وبأهلها وقد ترك هذا الفن أول الإسلام لتحريم الخمر ولكن فى عصر بنى أمية كان الشراب شائعاً يشربه المتبدون من فحول الشعراء، ويشربه بعض الخلفاء والأمراء ويشربه جماعة الغزليين والمغنين وربما لم يكن يرى فيه بعضهم إثماً ولا ذنباً - ولكن المجاهرة بالخمريات فى الشعر، والدعوة إليها لم تعرف إلا عند «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» فله فى ذلك مقطوعات رقيقة مشهورة، ولعله هو الذى فتح الباب فى ذلك لطبقة «أبى نواس» من شعراء العصر العباسى، والكلام فى الخمر يتناول وصف لونها وآثارها وآنياتها وساقيتها ومجالها ونحو ذلك ولكنها لم تصر فناً قوياً إلا فى العصر العباسى إلا ما كان من شأن «الأخطل» وجميع شعراء النصرانية ذلك دأبهم دائماً.

٢ - من الناحية اللفظية:

«أسلوبه»

وأهم ما يعنينا هنا تلك الناحية العامة أى الأسلوب فأى شىء طراً يقوم على شيئين الفن الذى يعالجه هذا الأسلوب ثم شخصية الأديب الذى ينشئ هذا الأسلوب. وإذا أخذنا بهذا القانون بالنسبة لأسلوب الشعر الأموى استطعنا أن نظفر منه بأساليب أربعة:

١ - محافظ على القديم.

٢ - رقيق جميل.

٣ - قوى جديد.

٤ - ضعيف حزين.

١ - فحول الشعراء:

هناك فحول الشعراء منهم - «الأخطل، والفرزدق، وجريـر، والراعى، وذو الرمة، والقطامى، والرجاز» وهؤلاء كانوا يحيون حياة بدوية جاهلية لم تشرب روحهم الإسلام على العموم وكثيراً ما احتفظوا بتقاليد الجاهلية ولا سيما «الفرزدق» وتبرموا بشعائر الإسلام، فشربوا النبيذ، وأنكروا الزكاة، واحتموا بالقبور أو حموا بها، ونحروا الإبل، وأحيوا العصبية القبلية، وأخذوا آدابهم عن البدو فى الصحراء، وكانت صلاتهم بالخلفاء على أساس النفع والانتفاع، وأعادوا بالمزيد والكناسة عادات المفخرة بالشعر، وتكوين الحلقات القبلية والأدبية والتجارية كما كان الشأن فى «عكاظ ومجنة، وذى المجاز» مثل هذه الحياة من شأنها أن تجعل طبائع الشعراء جافة غليظة، وأذواقهم بدوية عنيفة ولغتهم غريبة ضخمة، وأخيلتهم من جنس الأخيلة البدوية الجاهلية فكان شعرهم جاهلياً فى أغلبه أعادوا به الأدب البدوى بأيامه ومفاخره، وتقاليده، وفصائله بل أربوا على الجاهلية فى العصبية وفى الإقذاع فى الهجاء وبخاصة إذا لاحظنا استغلال السياسة لهاتين العصبية والفحش فهذا شىء آخر هو أن الفنون التى عالجها هؤلاء الشعراء كانت إما قديمة وإما تقليداً للقديم، ومجارة لحالته فكانت مدحاً وهجاءً، وفخراً وحماسة، وسياسة ونحو ذلك وهذه كانت على الأصول نفسها التى قامت عليها هذه الفنون فى العصر الجاهلى.

فكان الأسلوب غريباً، متخماً بالألفاظ، بدوى الخيال، طويل البحور، ولا سيما هؤلاء الرجّاز الذين اعتزوا بفنهم وأدخلوا فيه الفنون الشعرية العامة بعد ما كان وفقاً على بعض الأبواب - معنى ذلك أن هناك طبقة الفحول الذين عاشوا فى ظل الإسلام عيشة جاهلية اجتماعية وأدبية تامة.

٢ - شعراء الغزل:

وهناك الغزليون الذين عاشوا فى «الحجاز» مدنه وبواديه، وهؤلاء قد توافرت لهم عوامل جعلت أسلوبهم الشعرى رقيقاً جزلاً سواء منهم المدنيون فى «مكة والمدينة والطائف» - أو البادون من ذلك، هذا الفن الغزلى الذى عكفوا عليه هو فن رقيق لأنه صورة لشعور الحب والحديث عن جمال المرأة المادى والروحى والشكوى منها وإليها، وقص حوادث معها وذلك يستلزم الرقة.

ومن ذلك فن الغناء الذى لازم الشعراء وكان الشعر مادته ، وهذا دعا إلى تقصير البحور ، وتهذيب الأسلوب وحسن انسجامه ليتلاءم مع الأدوار الغنائية ، ومن ذلك هذه الحياة المترفة المثرية ، التى توافرت «للحجازيين» فجعلت ذوقهم رقيقاً مهذباً وشعرهم كذلك ، ثم هذه القيان الروميات والفارسيات اللاتى أشعن جوّاً لطيفاً ، واستلزمن جوّاً رقيقاً جميلاً حولهن ، ثم هذه الوراثة القرشية المهذبة الرقيقة المترفة منذ الجاهلية التى كانت تؤثر فى لغة قريش تهذيباً وتصفية مما جعل شعرهم حتى الجاهلى وما عاصر البعثة سهلاً ليناً رقيقاً. لذلك كله كان الغزليون أهل ظرف ورقة وكان شعرهم رقيقاً جزلاً وكان جديداً حقاً فى قصصه وعفته ، وقصر بحوره أحياناً ، وإلفه للنفس حتى الورعة التقية ، وكان «عبد الله ابن عباس» يحفظه ولا يتحرج من روايته ، وفن الغزل الأموى مشهور معروف مختلف الشخصيات والمذاهب «فالمجنون ، وجميل ، وعمر ، وكثير ، ونصيب ، والأحوص ، وقيس ابن زريح ، وعبيد الله بن قيس الرقيات» كلهم أصحاب أسلوب جزل رقيق.

٣ - شعر الخوارج:

وهناك شعراء الخوارج - الطرمّاح بن حكيم ، وعمران بن حطان ، وإسماعيل بن يسار - وهؤلاء قد كانوا مخلصين لعقيدتهم الدينية والسياسية شديدي الإيمان ، ورعين ، صادقين فى شعورهم ، شجعاناً فى نزالهم ، يعبرون عما يجرى خلفهم وما يأملون فى أن يتحقق فكانت موضوعاتهم جديدة ، وكانت شخصياتهم قوية مخلصّة رقيقة ، وكانت الحياة لديهم هينة لا قيمة لها ، وكانوا يؤمنون بالديمقراطية ضد الأرستقراطية الأموية والهاشمية. فكان أسلوبهم الشعرى قوياً جزلاً رقيقاً ليس فيه عجرفة المحافظين ، ولا تخنث «ابن أبى ربيعة» من الغزليين المحققين ، وهم حزب الثورة الجامعة المتصوفة فكان أسلوبهم قوياً ثائراً دينياً لا يعرفون إلا الآداب الإسلامية ولا يخضعون إلا للمساواة التى هى طابع الإسلام والتى يختصرها هذا البيت وهو «لعمران بن حطان» :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر

٤ - شعر الشيعة:

هناك جماعة من الشيعة مثل «الكميت بن زيد الأسدى» ، وكثير عزة ، وأبى الأسود الدؤلى وهؤلاء يمثلون فى آرائهم ، وشعورهم هذا المجد الدينى والحق الضائع المرغوب ، والهزيمة الماحقة ، وصفق السلطان ، وقلة الأعوان ، فكان شعرهم شعراً باكياً حزيناً ، وحباً وعطفاً

على المظلومين وشفقة على البائسين، فكان أسلوب الشيعة ذكريات لأيام عزيزة خالية، وعزّ غابر، فكان أسلوباً ضعيفاً خافئاً، وكان أحياناً تقريرياً يقيم الحجج والبراهين، ولكن ماذا تُجدي تلك في وجه القوة القاهرة، والاستبداد الحكومي؟ فالموضوع شكوى وبكاء، وحُزن، ودعاوى نظرية والشعراء أنفسهم لم يكونوا في إخلاص الخوارج فكان شعرهم قليلاً كما كان ضعيف الأسلوب وسطاً بين القديم والجديد، بخاصة لدى الشاعر «الكميت بن زيد الأسدي». والمرجئة مثل الشيعة تقريباً لأن المرجئة جماعة ومسالمة، لأنها تكتفي من الدين بالإيمان يعنى التصديق، ولا تعنى كثيراً بالأعمال الظاهرة، ولا تتعرض لأحد بخير، ولا بشر بل ترجى ذلك إلى الآخرة وتدعه لله سبحانه وتعالى وهى ذات أمل عريض فى ثواب الله، ومغفرته، فدأب هذه الجماعة «المسالمة والإرجاء» لا تسفك الدّم إلا أن يراد بنا سفك الدماء طريفاً واحداً جدداً من يتق الله فى الدنيا فإن له أجر التقى إذا وفى الحساب غدا فكان أسلوبهم هادئاً يفترق عن الشيعة بخلوه من الحزن والبلاء وبالأمل، وليست فيه محافظة هو تقرير لا غير، بل هو خوف ومسالمة.

هذه الخواص التى ذكرناها لأساليب الشعر المختلفة باختلاف البيئات الشعرية هى خواص غالبية وقد تجد فيها مخالفة شاذة، أو قليلة لا تعبر شيئاً من هذا الطابع وهناك مع ذلك مظاهر لفظية أو أسلوبية عامة تشترك فيها هذه الأساليب جميعاً.

تأثير الدين والقرآن فى ألفاظ الشعر:

لقد كان للدين والقرآن الكريم كبير الأثر فى تهذيب الألفاظ التى تناولت التراكيب والمفردات بصفة عامة فجاءت خلواً من غرابة الجاهلية وعزجهيتها لدى الفحول من الشعراء وحتى هؤلاء كنا نرى فى شعرهم تهذيباً واضحاً وذلك بتأثير الدين، والقرآن الكريم، والحضارة الجديدة بمظاهرها الحسنة، وعواملها المعنوية. أما الغزل فإن أمره ظاهر حيث إنك تجد ألفاظه رقيقة وعباراته مهذبة، وفصيحة جميلة الوزن والموسيقا صالحة للغناء، ومثله فى ذلك «النسيب» الذى يتصدر القصيد حتى عند الفحول من الشعراء مثل: «جرير» حيث إنك تحسّ بحلاوة اللفظ، وتشعر بجمال العبارة استجابة لصدق الشعور، وتهذيب الأذواق وإذا قصدت إلى شعراء السياسة وجدت أن قصدهم إلى المعانى، كما كان الاحتجاج يحملهم على تصفية العبارات حتى تكون شفافة واضحة ليس فيها تعمل ولا امتنان، فهى لغة الحديث مهذبة وموزونة والفحول من الشعراء فى عصر بنى أمية لم يسلموا من التهذيب وجزالة العبارات، وقوة الأداء. فهم ببدواتهم إسلاميون يقبسون من القرآن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

خلو الشعر من الإسفاف والسخف:

وقد جاء شعرهم خلواً من الإسفاف والسخف كالذى نجده لدى شعراء العصر العباسي - فلا نجد عند الإسلاميين ذلك السخف، وتلك الرذالة، أو الإسفاف الذى بدا واضحاً لدى شعراء العباسيين كما أومأنا إلى ذلك آنفاً، ولا سيما حين يريدون أن يحلو الشعر محل النثر، ويتحدثوا به كما يتحدثون بالكلام العادى إذ إن البداوة قريبة، وأسلوب القرآن قائم ومحترم كما أن الخلق نفسه قوى، وقويم، والآداب تحتل مكانة سامقة، وشامخة، وجليل القدر. لذا التزم الأسلوب صفة الجزالة مع الرقة حيناً، ومع الفخامة والسهولة والوضوح أحياناً.

تأثره بقصص القرآن وجدله:

ولقد تأثر أسلوبهم بقصص القرآن الكريم وجدله وتقديره، وكناياته، وتمثيله، وقصيدة «ثابت قطنه» فى الإرجاء واضح بها التأثير بالأسلوب القرآنى التقريرى، وهى آيات منظومة:

يَا هِنْدُ فَاسْتَمْعِي لِي إِن سِيرْتَنَا	أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَنْ نَشْرِكَ بِهِ أَحَدًا
تَرْجِي الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مَشَبَّهَةً	وَتَصْدُقِ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عِنْدَا
الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلَّهُمُو	وَالْمَشْرُكُونَ اسْتَوُوا فِي دِينِهِمْ قِدْدَا
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ	أَجْرَ التَّقَى إِذَا وَفَى الْحِسَابَ غَدَا
وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ	رَدٌّ وَمَا يَقْضَى مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشْدَا

ونجد لدى الشعراء الغزلين كثيراً من هذا اللون، كما نجده لدى الخوارج. أما الفحول من الشعراء فكان تأثرهم بذلك واضحاً جلياً.

رواج الشعر وصيرورته صحيفة الحياة:

لقد كان الشعر فى عصر بنى أمية صحافة هذا العصر كما كان مِيزة الخلفاء، والأمراء، والولاة، كما وقد كان الشعر أيضاً لسان القبائل، ووسيلة المجد، فاحتل بذلك مكان الصحافة، والإذاعة، والخطابة العامة والبرلمانية، وكان أقوى مظهر أدبى فى عصر الدولة الأموية.

وقد توافرت للشعر عوامل شتى أكسبته هذه المكانة الممتازة، وحملت تلك التبعة الخطيرة منها هذه العصبية القبلية التي اشتد أوارها لعوامل اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، فصار الشعر كما كان في الجاهلية يرفع القبائل، ويخفضها، حيث كان البيت من الشعر يرفع قبيلة خاملة إلى السمك الأعزل ويضع قبيلة عظيمة لها شأنها إلى الحضيض الأسفل وذلك أمر معروف ومشهور حيث قال «جرير» في بني نمير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فقد كان الرجل من قبيلة «نمير» في الطرق يتباهى ويتفاخر بقبيلته وأنه من «نمير» فيقول «نميري أنا» فجعله «جرير» لقباً يعير به بدلاً من أن يفأخر.

تشجيع زعماء الأحزاب

وقد كان الخلفاء يشجعون زعماء الأحزاب السياسية، تحقيقاً لمآرب سياسية أو رهبة منهم لأنهم يعرفون قيمة الشعر وما له من مكانة لدى نفوس الناس، ولذلك استخدم الخلفاء الشعر وسيلة سياسية تتدافع بها الأحزاب السياسية، فلم تكن هناك وسيلة أيسر منه ولا أنجح لنيل الغرض المطلوب، وذلك لسهولة حفظه وبقائه في الأذهان، وعلوقه بالجنان، وقد كان الخلفاء يغدقون على الشعراء رغبة منهم في نشر مذهبهم السياسي أو إدارة للشعراء، وكسباً لألسنتهم الحادة أو طمعا في جذب قبيلتهم والحصول على التأييد السياسي منها مما جعل الخلفاء يغضون الطرف عن هفوات الشعراء، وجرائمهم ومخالفاتهم الدينية التي يستأهلون عليها إقامة الحدّ، كل ذلك كان في سبيل السياسة.

احتفال الخلفاء بالشعر ونقده:

قد كان الخلفاء، والأمراء، والولاة في الأغلب الأعم أدباء يقرضون الشعر، أو يشجعونه وينقدونه، ويستمعون إليه، ويطربون له، وكانوا يستطربون الرواة لمناقشتهم حوله، ويسألونهم عن نصوصه. فهذا «الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان» كان شاعراً خليعاً، ملحدًا، له في فنّ «الغزل، والخمريات» قسط وافر لدرجة أن ذلك لم يخط به شاعر في عصره وبعداً إماماً للشعراء الإسلاميين في هذا الفن، فقد فتح الباب أمام الشاعر «أبو نواس» ولمدرسته قاطبة. أما أمراء البيت الأموي وأشياعهم، ومعارضوهم فإن كتب الأدب تعج بنوادهم في نقد الشعر ومدارسه.

تدوين العلوم المختلفة:

وفى هذا العصر حدثت نهضة علمية أدبية تُعنى بالتدوين، والنقل، والاعتماد على الشعر، كشواهد لغوية، وأدبية، فوق بقاء البادية مدرسة يؤمها الشباب لدراسة اللغة، وارتفاع آفاق الأدب يتلقونها مشافهة من الأعراب أو استقدامهم لأخذ اللغة، وشواهدا، هذا فوق تمدن الأمة واعتمادها على الشعر كفن رفيع وراق يلزم الحياة الراقية إلى حد كبير، ولا يقول قائل إن الشعر كان رائجا في العصر الجاهلي، وفى عصر البعثة الإسلامية حيث إن رواجه زمن البعثة سببه النهضة الجديدة. وكان رواجه فى الجاهلية أضيق أفقا حيث كان للمفاخرة، والاستجداء وإنما ساد فى هذه الحقبة للمفاخرة والاستجداء والكدية وطلب العطاء المادى، والسياسة والعصبية القبلية، والحزبية، والتدوين العلمى كان الشغلة الأدبية اللازمة لحياة الدولة وتصوير مناحيها المتباينة، وتقويم شئونها على ما يرسمه الخلفاء.

عناية القبائل بالشعر والشعراء:

أما ما يتصل بعناية القبائل بالشعر، واستحالة موقفها عما كان عليه فى الجاهلية، وذلك راجع إلى تغير مكانة هذه القبائل فى الإسلام من حيث اتصالها بالشئون العامة، وبقاء مكانتها أو تغييرها، فها هى ذى قبيلة «قيس» وقد كانت لها مكانة سامقة فى الجاهلية، وقد احتفظت بها فى الإسلام، وذلك لقوتها، وكثرتها ومشاركتها فى الأمور السياسية، وتسجيل جهودها وأن ترفع صوتها عالياً. لذا كان لها فى العصر الجاهلى سبعة وعشرون شاعراً، فصار لها فى الإسلام ستة وعشرون شاعراً، وقبيلة «تميم» قد كان لها فى الجاهلية اثنا عشر شاعراً فصار لها فى الإسلام ثلاثة عشر شاعراً، وأمّا قبيلة «قريش» فقد كانت قليلة الشعر ضعيفته فى الجاهلية وصارت فى الإسلام نابهة الشاعرية، فقد كان لها فى الجاهلية «عشرة شعراء» فصار لها فى الإسلام «تسعة وعشرون شاعراً» وكانت قبيلة «ربيعة» عكس قبيلة «قريش» فقد كان لها فى الجاهلية «عشرون شاعراً» فصاروا فى الإسلام «أحد عشر شاعراً» ويبدو لى أن هذا راجع إلى نزوح كثرتها إلى العراق مع هوان أمرها فى الإسلام ومثلها فى ذلك قبيلة «مُضَر» أو جل «مُضَر» فقد كان شعراؤهم فى الجاهلية «ستة عشر شاعراً» فصاروا فى الإسلام «تسعة شعراء» وقبيلة «قحطان» كان شعراؤها فى الجاهلية

«اثنین وعشرین شاعرًا» فصاروا فی الإسلام «ستة عشر شاعرًا» وهذا أمر طبعی، فلم یکن «الیمن» مكانتها القديمة على العموم، ولا سیما أن كثرتهم الإسلامية دخلت اللغة متعلمة، وكثرتهم الجاهلیة مشكوك فیها وهناك «إیاد والیهود» لم یكن أحدهم شعراء إسلامیین. وكان لإیاد فی الجاهلیة شاعر وللیهود أربعة.

الموالی وأثرهم وتأثیرهم

بقى الموالی هؤلاء دخلاء فی الشعر العربی فإذا صح ما یروی عن الجاهلیة أنه كان للموالی شاعر جاهلی واحد هو «سحیم عبد بنی الحسحاس» الأسود النوبی اشتراه سادته الأسدیون وأدرك النبی علیه السلام وكان «كعنترۃ العبسی» شاعرًا غزلًا، وكثر تغزله بنساء سادته فقتلوه.

ولكن هؤلاء الموالی دخلوا فی الإسلام، أو أدخل علیهم الإسلام فی بلادهم فأسلموا وتعلموا العربیة، وبزوا فیها كثیرًا من أهلها الأصلیین. وكان تعلمهم اكتسابًا وتدینًا وتأدبًا نقلوا إلیها أو إلی الشعر جزءًا من ثقافتهم وروحهم فكانوا لونا جدیدًا فی الشعر العربی ظهر قویًا فی العصر العباسی^(١).

ویهمنا هنا ما نلاحظه من كثرة عددهم وهذا أمر طبعی مادام الإسلام قد أزال لغتهم، وأحل محلها العربیة فمعنی ذلك أن هؤلاء كانوا سیصیرون شعراء أعاجم فصاروا شعراء عربًا على أن هؤلاء الأعاجم قد تدخلوا فی الخصومات السیاسیة والمذهبیة الإسلامیة وصار لهم شأن كبیر فی توجیه الحزبیة السیاسیة والمذهبیة فوق تلك العصبیة الجنسیة أو العنصریة التي نهضوا بها وكانت أولى خطوات الشعبویة.

٣ - من الناحیة المعنویة:

وهذه الناحیة مظهر للجدة والابتكار ثم الكثرة والثراء ثم التنسیق، وحسن الترتیب وهكذا، وهذه الحیاة الجدیة من شأنها أن تفتح المجال لذلك كله ولأكثر منه ولیس من طبیعة الأشياء أن تموت المعانی القديمة، وإنما قد تتغیر وتستحیل، وعلى كل فیمكن تناول هذه الناحیة المعنویة فی النقط الآتیة :

(١) راجع تاریخ آداب الشعر العربی «لجوحی زهیر» ج١ ص ٢٣٤.

١ - معانٍ جديدة من القرآن:

استمال معانٍ جديدة مأخوذة من القرآن تضيفاً حسب المناسبات وذلك مثل قول «الفرزدق»:

ولست مأخوذاً بلغو تقوله إذا لم تعتمد عاقدات العزائم

ضمن قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [سورة المائدة: آية ٨٩]. وقوله أيضاً:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

من قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا﴾ (٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا﴾ [سورة النازعات: الآيات ٢٧ - ٢٩]. وقوله أيضاً:
وقول «قطرى بن الفجاءة»:

رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

من قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [سورة التوبة: آية ١١١]. في هذه الأبيات شعر ديني جديد ومعانٍ دينية جديدة مما أتى بها الإسلام.

٢ - معانٍ جديدة استلزمها قيام الأحزاب والفرق:

استلزم قيام الأحزاب السياسية والفرق الدينية معانٍ جديدة ترد تقريراً للمذاهب وفي أثناء الجدل حولها، وهي معانٍ دينية وسياسية معاً، من ذلك قول «الكميت» الشاعر الشيعي يحتج لبني «هاشم» بشأن الخلافة ويرد على الأمويين قولهم:

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
ولا ننشلت عضوين منها بحابر وكان لعبد القيس عضو مؤرّب
فإن هي لم تصلح لحى سواهم فإن نوى القريبى أحق وأوجب
فيا لك أمراً قد أشتت وجوهه وداراً ترى أسبابها تنقضب

وقول «عون بن عبيد الله» كان مرجئاً ثم عدل عن الإرجاء :

فأول ما أفارق غير شك أفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من آل جور وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنيننا

وقول «عمران بن حطان» من الخوارج الزاهدين يختصر مذهبهم :

ونحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر

ومن المعانى السياسية ما قاله «مسكين الدرامي» لما أوعز إليه «معاوية» أن يدعو لبيعة
«يزيد» ابنه من مطولة :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

ومن ذلك ما قاله «كعب بن جعيل» شاعر أهل الشام :

أرى الشام تكره ملك العرا ق وأهل العراق له كارهينا
فقالوا: على إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا: نرى أن تدينوا لنا فقلنا ألا لا نرى أن نديننا
ومن دون ذلك خرط القتتا د وضرب وطعن يفض الشثونا

ويرد عليه «النجاشي» أحد بني الحارث بن كعب شاعر أهل العراق :

دعا يا معاوى ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل العرا ق وأهل الحجاز فما تصنعونا

٣ - توليد بعض المعانى الجديدة:

وذلك من التنافس وكثرة معالجة الشعر والتأني فيه وذلك مع استحالة الزمن وتقدمه
وتمدد العقل العربى يؤدى إلى الابتكار والتجديد، من ذلك ما تهكم به جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

وقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقول الفرزدق :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

وقول الأخطل :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه لتحيا وقد ماتت عظام وفصل
تهاديه أحيانا وحينئذ تجره وما كان إلا بالحشاشة يعقل
إذا رفعوا عظما تحامل صدره وآخره مما نال منها فحبّل

على أن البيت في جدة هذه المعاني لا ممّا يصعب ولكنها ظاهرة الروعة على كل حال.

٤ - معانٍ من وحى الإسلام:

وهناك معانٍ إسلامية، أى من روح الإسلام ووحيه كقول «قطرى بن الفجاءة» :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تداعى
فإنك لو سألت بقاء يوم عن الأجل الذى لك لن تطاعى

وقال «جرير» فى رثاء زوجه :

صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليك والأبرار

وقال «الكميت» فى بنى هاشم :

إلى النقد الأبيض الذين يحبهم إلى الله فيما نابنى أتقرب

وهناك هذا الشعور الإسلامى الجديد الذى كان يغمر الشعراء فى جو إسلامى جديد، ونظام حكومى جديد وحياة مدنية جديدة تخالف ما يعرفون من قبل، فالشعور مهذب، على العموم فيه روح الإسلام، والخوف من الحاكم، وحدود الدين ظاهرة والانتباه إلى الحياة المدنية المنظمة، كل ذلك تجده فى شعر الغزليين المتعنفين الذين يحجبهم عن الإثم تقى الله واستحياء المحارم، وفى شعر غيرهم الذين يذكرون مكة وشعائر الإسلام والحج، وفى شعر الأحزاب الذين يتأثر بروح الدين، وفى شعر الفحول الذين يخافون الولاة.

٥- ترتيب المعانى:

ترتيب المعانى مسألة طبيعية لأن العقل العربى هدأ واستقر، ثم أخذ يتحضر، والشعراء يصنعون القصيد ويعنون به، وينشئون فصوله فى ترتيب، ولذلك ظهرت وحدة القصيدة واضحة فى العهد الإسلامى على الرغم من هذه الديباجة الغزلية التى لزمتهها وليسست الوحدة شيئاً جديداً فهى متوافرة عند كثير من شعراء مضر فى الجاهلية «كزهير والنابعة، والأعشى» ولكنها قويت فى العصر الأموى وصارت عامة شاملة، وقد ساعد على ذلك ما ظهر عند الشعراء الموالى من هذا الارتباط والتنسيق الذى يرجع إلى الروح القصصى الفارسى، كما هو ظاهر عند «إسماعيل بن يسار» فى قصيدته المشهورة:

كلثم أنت الهم يا كلثم	وأنتمو دائى الذى أكتم
أكاتم الناس هوى شفى	وبعض كتمان الهوى أحزم
قد لمتنى ظلماً بلا ظنة	وأنت فيما بيننا ألوم



بيئات الشعر في العصر الأموي

البيئات الشعرية في العصر الأموي ثلاث هي: «الحجاز، ونجد، والعراق» يعنى أنها كانت في غير موطن الخلافة، وإذا كان الشعر يرحل، أو ينتقل إلى «دمشق» مثل السلع الأخرى كان يربى وينشأ في تلك المراكز الرئيسية، ثم ينتقل إلى الشام أو مصر مثلاً فقد وفد «عبد الله بن قيس الرقيات» و«الأحوص» و«جميل» على «عبد العزيز بن مروان» في مصر كما كان «الفرزدق» في مصر، فلم يعرف في القرن الأول شاعر ولد في مصر، ونشأ فيها ومات، وكذلك الشأن في بلاد الشام فكان الشعراء يفدون على الخلفاء والأمراء في «دمشق» مادحين، ثم يعودون إلى العراق أو نجد أو الحجاز حتى «الأخطل» شاعر الأمويين أصله من بلاد الجزيرة، أو العراق، وإن عاش في الشام زمن «يزيد بن معاوية» ولكنه عاد إلى وطنه ووفد على «عبد الملك بن مروان»، وربما كان «عدى بن الرقاع» هو الشاعر الشامي الوحيد الذي نشأ في الشام وعاش ومات بها، واتصل بالوليد بن عبد الملك شاعره، وكان بينه وبين الشاعر «جرير» ملاحاة، وكان يتكلف الشعر ويصنعه فهو يشبه شعراء الموالى الذين أخذوا الشعر تعلماً وصناعة، وكذلك كان الشأن في بلاد الشرق من العراق العجمي إلى الصين حيث كان الشعراء يفدون على الأمراء فيها دون أن ينبغ منها شاعر.

وقد أقام في «الحجاز» الشعراء المترفون في «مكة» و«المدينة» وأقام في «نجد» شعراء البادية المحافظون، وكانوا على صلة وثيقة بالعراق يفدون إلى البصرة والكوفة ولا يقيمون إلا قليلاً، ثم يعودون إلى البادية كل من جرير والفرزدق.

كان الفرزدق يعيش في البادية وهي بادية «تميم» إلا إذا اضطرت الظروف أن يفد إلى «البصرة» و«الكوفة» فترة ما ثم يعود إلى قومه، وأما الأخطل فهو عراقي معروف. وتعليل ذلك أن العراق بلاد غنية لجأت إليها القبائل من قديم الزمن واستقرت فيها جماعات من «ربيعة» و«بكر» و«تغلب» التي منها الشاعر «الأخطل» فهو تغلبي معروف. وكذلك الشاعر «القطامي» ومن «مضر» التي منها، أو من فروعها «دارم» قوم الفرزدق و«يربوع» قوم «جرير» وهذه كانت متبدية ثم قبائل «قيس» وكانت أيضاً متبدية، ثم ذهبت إلى الشام واستقرت في «قرقيساء» فكان شمالي «نجد» مستقر قبيلة «تميم» و«قيس» وبقي جل قبيلة «تميم» في البادية.

وأما احتجاز القرشيين ومن إليهم في «الحجاز» خوفاً منهم ثم ترضيهم بالمال أيام «بنى أمية» ثم عكوفهم على ملذاتهم، وفنونهم، ذلك الأمر جعل للحجاز مكانة شعرية غزلية معروفة. وإذا كان الشعر حجازياً، وعراقياً، ونجدياً، فإن التعبير الإقليمي لم يكن خطيراً بين الجاهلية والإسلام، لأن الأوضاع العربية لم تتغير كثيراً، فعاصمة الأمويين السياسية تقع على أطراف الجزيرة العربية، وسياسة الدولة لا تقع على أطراف الجزيرة العربية، وسياسة الدولة عربية، وحكامها عرب، وجيوشها من العرب، وحملتها قبائل عربية، ولأماكن المقدسة مكانة ملحوظة على كل حال. فإننا نلاحظ أن البيئة النجدية هي التي حفظت مكانتها في الجاهلية والإسلام إذ كانت موئل الشعر في الجاهلية، وصارت في الإسلام مدرسة للعقيدة، نشأ فيها الشاعر «جرير» و«الفرزدق» و«الراعي النميري» و«ذو الرمة» والرجاز وسائر الفحول، وأما البيئة الحجازية فقد كثر شعراؤها الغزليون وقوى فنهما، وكان فناً جميلاً طريفاً ودقيقاً.

وأما البيئة العراقية فقد كانت هيئة الشعر تعد إليها من البادية وربما لا يذكر لها شاعر مثل «عدى بن زيد» وأما أمثال الشاعر «الأخطل وجريز والقطامي والفرزدق» فكانوا جميعاً وفوداً على العراق.

فقد كانت البيئة العراقية بيئة محافظة، وكانت البيئة الحجازية مجددة. وسنعرض في هذا المضمار جملة من النماذج الشعرية الرائعة التي تصور هذا العصر.

النماذج الشعرية

أولاً - الشعر السياسي:

مدخل

يمتد العصر الأمويّ اثنتين وتسعين سنة هجرية من سنة ٤٠هـ / ٦٩٠ للميلاد لما انفرد «معاوية بن أبي سفيان» بحكم الشام ونادى بنفسه خليفة، إلى سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ للميلاد. وذلك حين هزم «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية في معركة «الزّاب» وسقطت بهزيمته «الدولة الأموية» وبما أن العصر الأدبية لا تنطبق انطباقاً تاماً على الأعصر السياسية فلا بد هنا من التحكم قليلاً في تفريق الأدباء بين العصر المخضرم وبين العصر الأمويّ، ثم

بين العصر الأموي والعصر العباسي. وقد اتخذت سنة الوفاة فارقا بين هذه الأعصر، فمن وقعت سنة وفاته مُوْغلة في العصر الأموي فهو أموي بلا ريب، وإن كان قد عاش رَدْحًا طويلا في عصر الخلفاء الراشدين مثل «زياد بن أبيه» حيث إنه ولد في السنة الأولى للهجرة وعاش «أربعين سنة» قبل قيام الدولة الأموية غير أن المروى من أدبه يعود أكثره إلى العصر الأموي، وكذلك نحن نعدّ الشاعر «بشار بن بُرد» شاعرًا من مخضرمي الدولتين «الأموية والعباسية» لأنه عاش نصف حياته الطويلة أو أكثر في العصر الأموي ثم عاش ما بقي منها في العصر العباسي، غير أننا نصفه عادة في طبقة الشعراء العباسيين.

أولا - النعمان بن بشير الأنصاري:

هو «النعمان بن بشير بن سعد من بني مالك الأغر بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، وأمّه هي «عمرة بنت رواحة» أخت الصحابي الجليل وأحد قادة «غزوة مؤتة» «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه، ولبشير بن سعد والد «النعمان» سابقة في الإسلام، فقد شهد «بيعة العقبة» ووقعة «بدر الكبرى» ولما لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، وأراد سيدنا «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أن يحسم الخلاف بين المسلمين وقدم «أبا بكر» رضي الله عنه للخلافة كان الصحابي الجليل «بشير بن سعد» رضي الله عنه أول المبايعين لسيدنا «أبي بكر» رضي الله عنه.

أما «النعمان» نفسه فقد ولد في السنة الثانية للهجرة سنة ٦٢٤ للميلاد في المدينة المنورة صلى الله عليه وسلم على ساكنها سيدنا «محمد» وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة النبوية الكريمة ولما بلغ التاسعة من عمره جاء إلى الرسول عليه السلام مع رفيق له ليشهد إحدى الغزوات فاستصغرها النبي عليه السلام وردّها. بيّد أن «النعمان بن بشير» رضي الله عنه نشأ أمويّ الهوى، فلما قتل سيدنا «عثمان بن عفان» رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ الموافقة ٦٥٦ م دفعت إليه نائلة بنت الفرافصة زوج سيدنا «عثمان بن عفان» قميص عثمان فحمّله إلى «معاوية بن أبي سفيان» ثم شهد معركة «صفين» مع «معاوية بن أبي سفيان» وتولّى «النعمان» القضاء في مدينة «دمشق» سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م ثم تولّى «الكوفة» «لمعاوية» لمدة «سبعة أشهر» وتولّى «حمص» بعدها. وفي هذه الأثناء تغزل الشاعر «عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري» رضي الله عنه «برملة بنت معاوية» فحمّى أنف «يزيد بن معاوية» أي غضب بل استشاط غضبا لهذا الأمر فاستدعى الشاعر «كعب بن جعبل» النّقلى وطلب منه هجاء الأنصار فقال له «كعب بن جعبل» أرأى أنت إلى الكفر بعد الإيمان؟ أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! ولكنى أدلك على شاعر نصراني وهو منّا يقبل ذلك الأمر يعني هجاء الأنصار، ثم دله على «الأخطل» فطلب

«يزيد بن معاوية» و«الأخطل» من الجزيرة العربية وأطلقه على «الأنصار» فقال «الأخطل»
أبياته الشهيرة التي يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

ونحن لا نُعفى الشاعر «كعب بن جعبل» من الإثم الذى اكتسبه من جراء هجاء
«الأنصار» فهو قد امتنع عن هجومه ولكنه سلط عليهم ، وأعان على هجومهم حيث إنه
دلَّ «يزيد بن معاوية» على «الأخطل» النصراني وقام الأخطل يهجو الأنصار فما الذى فعله
«كعب بن جعبل»؟ لم يهج الأنصار لكنه أعان على هجومهم. فدخل «النعمان بن بشير»
على «معاوية بن أبى سفيان» فَحَسَرَ عمامته عن رأسه ثم قال «يا معاوية» أترى لومًا؟ ثم
حسم «معاوية» هذه المادّة وذلك بأن اسْتَرْخَى «النعمان بن البشير» وردَّ «الأخطل» إلى
بلده، وألقى على «يزيد بن معاوية» درسًا فى الحلم والتبصر.

وبقى «النعمان بن بشير» واليًا على «حمص» وهى إحدى مدن «سوريا» حاليًا ببقية أيام
«معاوية» ثم فى أيام «يزيد» وأيام «معاوية بن يزيد» ، ولما دبّ النزاع بين الأمويين على
الخلافة بعد «يزيد بن معاوية» مال «النعمان بن بشير» إلى «عبد الله بن الزبير» رضي الله عنه. فأحفظ
بذلك أهل «حمص» فلما كانت معركة «مرج راهط» وانهزم جيش «الزبير» ، وصارت الخلافة
لمروان بن الحكم تمرّد أهل «حمص» على «النعمان بن بشير» وقتلوه سنة ٦٥ للهجرة - ٦٨٤
للميلاد و«النعمان بن بشير الأنصارى» رضي الله عنه صحابى جليل روى عن الرسول ﷺ أحاديث
كثيرة، وكان خطيبًا، وشاعرًا مجيدًا ، وفنون شعره فى «الفخر والحماسة» والتشبت وشعره
يدل على متانة سبكه ، فصيح الألفاظ، ظاهر المعانى.

ولما جاء «النعمان بن بشير» إلى «معاوية بن أبى سفيان» على رأس وفد للأنصار فى
أمر هجاء «الأخطل» لهم قال «للحاجب» استأذن للأنصار، وكان «عمرو بن العاص» رضي الله عنه
عند «معاوية» فقال «لمعاوية» قل للحاجب أن يُنادى الوفود بأنسابهم، ففعل الحاجب
ذلك فأبى الأنصار أن يدخلوا حتى ناداهم بلقبهم، فدخل الأنصار على «معاوية» يقدمهم
«النعمان بن بشير» رضي الله عنه وهو يقول :

يا سعدُ لا تجب النداء فما لنا لَقَبَ نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا أثقل به نسبًا على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم يوم القليب هم وقود النار

ولما دخل على «معاوية» قال له من قصيدة أنشدها :

معاوى إلا تعطنا الحق نعترف لحي الأزد مشدودا عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة وماذا الذى تجرى عليه الأراقم
فمالى ثأر قطع لسانه فدونك من يرضيه عنك الدراهم

ثم طعن على خلافة «معاوية» وفاخر بأعمال الأنصار وأحسابهم وقال :

وانى لأغضى عن أمور كثيرة سترقى بها يوماً إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى لتلك التى فى النفس متى أكاثم
فما أتت والأمر الذى لست أهله ولكن ولى الحق والأمر هاشم

فلما رأى «معاوية» منه الجد دفع إليه «الأخطل» لقطع لسانه ولكن «يزيد» ابنه استشفع فيه فقبل. ولما استلحق «معاوية» «زياد بن أبيه بأبى سفيان» قال «يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى».

ألا أبلغ معاوية بن صخر مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زان
فاشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سمية غير دان

شعر المديح والهجاء:

إن الشعر السياسى لم يخرج عن كونه مدحاً أو هجاءً بَيَد أنه ينصرف إلى الطائفة التى ينتمى إليها القول فيه أكثر مما يتصرف إليه نفسه ومن شعراء هذا اللون «جرير» ونعرف به فنقول :

«جرير»

هو الشاعر جرير بن عطية بن الخطفى وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مائة بن تميم وهو يلتقى بالفرزدق فى جدهما الأعلى تميم وأمه هى أم قيس بنت معبد من بنى كليب بن يربوع وكذلك كانت جدته لأبيه وهى النوار بنت يزيد من بنى كليب ، وهو شاعر وجدانى مطبوع يجمع وضوح المعانى إلى فصاحة الألفاظ، ومتانة التركيب وعذوبة السبك ، وشعره كثير السيورة على الألسن شديد العلق

بالذاكرة مطاوع للغناء وقد امتاز الشاعر جرير بالفنون الوجدانية وذلك بالنسيب والغزل والرثاء والهجاء وهو شاعر ضالع وبارع فى الوصف والمديح ، وكان جرير يجيد الزجر أيضا وبالإجماع على أن جرير قد فاق أترابه ولداته وأقرانه فى الفنون الآتية وهى الغزل والرثاء والهجاء وقد تغلب على جميع الشعراء الذين هاجوه وأحمل ذكرهم جميعا عدا الأخطل والفرزدق لأنهما اجتمعا عليه ، ولو أنهما تفرقا لقلبهما وأحمل ذكرهما وهذا دليل على قوة شاعريته ومتانته أسلوبه ، وفصاحة ألفاظه ، وخياله الرحب.

قال جرير يمتدح الحجاج بن يوسف الثقفى :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح	فأسمع ذا المعارج فاستجابا
صبرت النفس يا بن أبى عقيل	محافضة فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل	مع النصر الملائكة الفضابا
إذا سعر الخليفة نار حرب	رأى الحجاج أثقبها شهابا

وقال يمدح «عبد الملك بن مروان» :

أتصحو أم فؤادك غير صاح	عشية هم صحبتك بالروح
يقول العاذلات علاك شيب	أهذا الشيب بمنفى مراحي

وقال جرير يهجو الأخطل :

حى الغداة برامة الأطلالا	رسما تحول أهله فأحالا
طرب الفؤاد لذكرهن وقد مضت	بالليل أجنحة النجوم قتالا
قبح الإله وجوه تغلب إنها	هانت على مراسنا وسبالا
قبح الإله وجوه تغلب كلما	شيخ الحجيج وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد	وبجبريل وكذبوا ميكالا
ولو أن تغلب جمعت أحسابها	يوم التفاضل لم ترن مثقالا ^(١)

ويقول «الفرزدق» فى مدحته لسيدنا «على بن الحسين» رضى الله عن آل البيت :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقى الطاهر العلم

(١) النداء يعنى باكرا - مراسنا جمع مرسن وهو الأنف ، شيخ الحجيج رفعوا أصواتهم بالتلبية.

إذا رآته قريش قال قائلها
وليس قولك من هذا بضائره
يقضى حياء ويقضى من مهابته
بكفه خيزران ريحه عبق
يكاد بمسكه عرفان راحته
ينشق ثوب الدجى عن نور غرته
من معشر حبّهم دين وبغضهم
إن عدا أهل التقى كانوا أئمتهم

إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
العرب تعرف من أنكرت والعجم
فما يكلم إلا حين يبتسم
من كف أروع فى عرّينه شم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
كالشمس تجاب عن إشراقها الظلم
كفر وقربهم منجى ومعتصم
أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم^(١)

«الغزل»

«جميل بثينة»

هو الشاعر «جميل بن معمر» ويكنى «أبو عمرو» من بنى عذرة من قضاة المنتسبين إلى معد من غرب الشمال بيد أن أمه جذامية من اليمن وفى عمود نسب جميل من جهة أبيه اختلاف فى اسم أبيه نفسه ، ولد «جميل» نحو سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م فى «وادي القرى» من شمال الحجاز وعلى مقربة من المدينة ، ونشأ هناك أيضا ، وكان جميل فى أول أمره يميل إلى ابنة عمه «أم الجير بنت حبا» ثم تعلق بأختها «بثينة» وتعلقت به «بثينة» فخطبها إلى أبيها ولكن أبيها رده وزاد ولع جميل بمحبوته «بثينة» فجعل يقول فيها الشعر فاستعدى أهلها عليه «مروان بن الحكم» وكان واليا من قبل «معاوية بن أبى سفيان» على المدينة للمرة الثانية ٥٦ هـ - ٥٧ هـ ، وكان عامله على وادي القرى دجاجة بن ربعى فتوعد «دجاجة بن ربعى» «جميلا» إن هو زار بثينة أو تعرض لها ، فهرب جميل إلى أخواله من «بنى جذام» فى «اليمن» وفى ذى القعدة من سنة ٥٧ هـ / خريف ٦٧٦ م عزل مروان عن المدينة واتفق أن انتجع أهل بثينة إلى الشام بأنعامهم فجاء جميل إلى الشام ثم عاد إلى وادي القرى وتزوجت بثينة بابن الأسود العدسى وظل جميل يقول فيها الشعر ويزورها ويبدو أن دجاجة بن ربعى أو عامر بن ربعى بن دجاجة ظل عاملا لبنى أمية على وادي القرى فأهدر دم جميل فخاف جميل وهجر الحجاز إلى مصر ليتمدح واليها عبد العزيز بن مروان

(١) ركن الحطيم: حجر الكعبة المعروف بالحجر الأسود.

سنة ٦٥هـ/ ٧٠١م، وجميل بن معمر شاعر فصيح مقدم لدى النقاد سهل التراكيب واضح المعاني متأرجح العاطفة.

وشعر جميل كله في النسيب سوى قطعتين أو ثلاث إحداها في المديح ولجميل شعر هجا به زوج بثينة وقومها ومن الهجاء الموجه من الفرزدق لجرير قوله :

أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى	عظام المخازي عن عطية تنجلي
أمن جزع أن لم يكن مثل غالب	أبوك الذي يمشى بريق موصل
وإن تهيج آل الزبرقان فإنما	هجوت الطوال النشم من هضب يذبل
وقد ينبح الكلب النجوم ودونها	فراسخ تغنى العين للمتأمل

ويقول «جرير» في «الفرزدق» :

كذب الفرزدق لن يجارى عامرا	يوم الرهان بمقرف ^(١) مبهور
ولقد جهلت بشتم قيس بعدما	ذهبوا بريش جناحك المكسور
لن تدركوا غطفان لو أجريتم	يا ابن القيون ولا بنى منصور
فخروا عليك بكل سام معلم	فافخر بصاحب كلبتين وكبير
كم أنحيوا بخليفة وخليفة	وأمير صائفتين وابن أمير

ومن أبدع الغزل قول الشاعر «ذو الرمة» :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب	كأنه من كلى معزية سرب
استحدث الركب عن أشياءهم خبرا	أم راجع القلب من أطرابه طرب
لمياء فى شفتيها حوة لعس	وفى اللثات وفى أنيابها شنب
كحلاء فى برج صفراء فى نعجٍ	كأنها فضة قد شابها ذهب ^(٢)

الفخر والحماسة

قطرى بن الفجاءة

هو الشاعر «قطرى بن الفجاءة بن مازن بن يزيد بن يزيد مناة» ويكنى أبى تهامة وهو من «كابية بن حرقوس» وكان الشاعر «قطرى بن الفجاءة» فى أول أمره مواليا للأمويين، وسار

(١) مقرف يعنى أبوه أعجمى. وكان يرمى جد الفرزدق بأن أباه قين. مبهور - مقطوع النفس.

(٢) اللمى - سمرة الشفة. اللعس: الحمراء فى سواد الشنب. بريق ولمعان فى الأسنان. الدعج: سعة العين.

مع «المهلب بن أبي صفرة» إلى المشرق وشهد فتح سجستان بقيادة «عبد الرحمن بن سمرة» سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م. وببدا أنه بقى على ذلك زمنا طويلا ثم خرج فى مطلع ولاية «مصعب بن الزبير» على العراق ٦٦ هـ - ٧٢ هـ. حينما كان العراق تابعا «لعبد الله بن الزبير» واعتنق مذهب الأزارقة والأزارقة من الخوارج وهم أتباع «نافع بن الأزرق» وكان يرى أن مخالفه مشركون يجب قتلهم مع نساءهم وأطفالهم.

وانتشرت دعوة الأزارقة فى عمان واليمامة ثم فى الأهواز وكرمان من بلاد فارس وقد أرسل عبد الله بن الزبير لقتالهم جيوشا فهزموها كلها، ثم إن عبد الله بن الزبير كتب إلى «المهلب بن أبي صفرة» يأمره بحرب الأزارقة فانحدر المهلب إلى البصرة وحارب الأزارقة وهزمهم فى سلسلة من المعارك فى الأهواز قتل فيها نافع بن الأزرق ٦٤ هـ / ٦٨٣ م ثم قتل فى الأهواز عبيد الله بن مامون التميمي ثم أخوه عثمان فانهمز الأزارقة إلى إبدح فى الأهواز وبايعوا قطرى بن الفجاءة سنة ٦٩ هـ. وسموه أمير المؤمنين ونصب المهلب الحرب لقطرى ابن الفجاءة تسع عشرة سنة كان جلها فى زمن عبد الملك بن مروان وواليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفى وكان الحجاج قد أقر المهلب على حرب الخوارج وسار قطرى ابن الفجاءة إلى طبرستان فأخذ الجزية من أهلها فولى عندئذ الحجاج على الرى سفيان بن أبرد الكلبي وأمره بحرب الخوارج وتخلّى عن قطرى بن الفجاءة معظم أتباعه وسقط قطرى قتيلا سنة ٧٨ هـ. ٦٩٧ م. فى الأغلب.

وكان الشاعر «قطرى بن الفجاءة» فارسا شجاعا، مقداما وكان خطيبا وشاعرا أما شعره وقد كان فى الحماسة مع الاستهانة بالموت يصدر فيه عن نفس أبيه وشهامة عربية متين السبك شديد الأسر وأما خطبه فقد جاءت فى الحث على التقوى والتزهد فى الدنيا. يقول قطرى بن الفجاءة فى الحماس.

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لا تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا	فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حى	فداعية لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم	وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة	إذا ما عد من سقط المتاع ^(١)

(١) غاية يعنى نهاية. شعاعا. متفرقا لا تراعى: لاتخافى.

ويقول الفرزدق :

ألم تر أنا بنى دارم ذرارة منا أبو معبد
ومنا الذى منع الوائد ت وأحيا الوئيد فلم يوأد
ومجد بنى دارم دونه مكا السماكين والفرقد

«الوصف»

الأخطل

هو الشاعر «غياث بن غوث» ويكنى «أبى مالك» وهو من بنى عمرو وكانت أمة تدعى ليلي وكنيتها أم كعب وولد الأخطل فى الحيرة نحو سنة ٢٠ هـ / ٦٤٩ م. ونشأ فيها يقول الشعر مغرما باللهجاء، وكان جريئاً على الناس سفيه اللسان فلقب الأخطل وكان نصرانيا ولم يكن ملتزماً بتعاليم المسيحية حيث طلق امرأته وتزوج أيضاً بمطلقة واتصل الأخطل بالبلاط الأموى مرتين وهو الذى قام بهجاء الشاعر «عبد الرحمن بن حسان بن ثابت» حيث شجب برملة بنت معاوية بن أبى سفيان وكان مما هجاه به قوله :

إذا نسبت ابن الفريعة خلت كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابة بالجزع من صليصل وسرار
خلوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بنى النجار
ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

وفى الوصف يقول الأخطل فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف تنسى الشاربين لها عقولا
إذا شربت القنى منها ثلاثا بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قريشية لا شك فيها وأرخى من مأزره الفضولا

وقال يصف سكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد مالت عظام ومفصل
تهاديه أحياناً تجره وما كاد إلا بالخشاشة يعقل
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها محمل

وقال الشاعر حصين بن معاوية المعروف بالراعى النميرى يصف بيضة نعام حضنتها ظلم بالليل ثم تركها عند طلوع الشمس ينتفض، فقال:

وما بيضة بات الظليم يحفها وعشاء أعلى تربها قنديلدا
فلما علت الشمس فى يوم طلقة وأشرق مكاء الضحى فتفردا

ويقول الشاعر الأحوص بن محمد الأنصارى يصف نفسه فى حال شبابه، وشيئته:

نزل المشيب فماله تحويل ومضى الشباب فما إليه سبيل
ولقد رآنى والشباب يقودنى ورداؤه حسن على جميل
وعلى من ورق الشباب وظله غصن يفرع فى الغصون ظليل

ويقول الشاعر حميد بن نور الهلالى يصف حمامة تسجع:

مطوقة خضباء تسمع كلما دنا الصيف وانزاح الربيع فأنجما
تغنت على غصن فلم تدع لنائحه فى نوحها متلوما
فلم أر مثل شاقه صوت مثلها ولا عربى شاقه صوت أعجما^(١)

شعر الرثاء

لما مات الشاعر «الفرزدق» رثاه «جرير» وهو مما يحمد له:

لعمرى لقد أشجى تميمًا وهدها على نكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحوا للفرق بنعشه إلى جدث فى هوة الأرض معمق
لقد غادروا فى اللحد من كان ينتمى إلى كل نجم فى السماء محلق
عماد تميم كلها ولسانها وناطقها البذاح فى كل منطق
فمن لذوى الأرحام بعد ابن غالب وأم عيال ساغبين ودرق
ومن يطلق الأسرى ومن تحقن الدما يداه ويشفى صدر حران محنق
فتى بعنى المجد تسعين حجة وكان إلى الخير والمجد يرتقى

ولما مات «الوليد بن طريف» رثته أخته «الفارعة» وهى من شواعر الخوارج:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

(١) يوم طلقه يعنى لا حر ولا برد.

إلى أن قالت :

فإن أرادہ یزید بن مزید فرب زخرف لقہا زخرف
علیہ سلام اللہ وقفہ فانی أرى الموت وقافا على كل شريف



النشر الفني
في عصر بني أمية

النثر فى عصر بنى أمية

قبل الكلام على ميزات النثر فى عهد الدولة الأموية يحسن بنا أن نلم بتاريخ النثر العربى من الجاهلية إلى عصر بنى أمية لعل فى ذلك ما يعين على الموازنة وعلى تبیین خصائص النثر إلى آخر القرن الأول، وأوائل القرن الثانى.

وقبل الهجوم على هذا الموضوع يحسن بنا أيضا أن نلاحظ الفروق بين أنواع النثر لتكون ملاحظتنا على هذه الأنواع محدودة ودقيقة. فهناك الحديث العادى أو لغة التخاطب وهذا لا يعد أدبا إلا إذا احتوى حكما وأمثالا أو صور الحياة تصويرا دقيقا فى لغته الشعبية فينشأ منه الأدب العامى أو الشعبى المشهور.

وهناك فن القصص الذى يحكيه العرب بلغاتهم السليمة محتويا على حوادث تاريخية أو خرافية أو أسطورية وهو فن له قيمته الأدبية.

وهناك الخطابة وهى الفن العام الذى تخاطب به الجماهير قصد التأثير أو الإقناع فى مواطن سياسية واجتماعية وقضائية، ودينية (وبرلمانية).

وهناك الكتابة التى تتناول إنشاء الرسائل والمقامات والتقاليد ثم تستحيل فتشمل النقد الأدبى والعلوم والتاريخ والبلاغة ونحوها.

وهناك الجدل والحوار الذى يوضع حقا أو على السنة شخصيات وهمية للدرس والتهذيب وسنتناول بشىء من التفصيل بعض هذه الأنواع ونترك الباقي لعدم الحاجة إليه.

١ - لغة التخاطب

أما لغة التخاطب فالمفهوم أنها فى الجاهلية سليمة فى الغالب من حيث كلماتها وتراكيبها ولكنها كانت تختلف لهجاتها باختلاف القبائل، ولكل لهجة من لهجات العرب عدا القرشية هنة أو هنات ذكر بعضها صاحب الوسيط، والمزهر، والخصائص ومن الطبيعى زيادة على هذا الاختلاف أن يتطرق للحن أحيانا إلى بعض الناشئة أو المتصلين بالأعاجم أو الموغلين فى القفر البعيدين عن جمهرة العرب.

ولكن شيئا من ذلك لم يصل إلينا رواية سليمة - كذلك لا يعرف بالدقة ما يفرض من أن هذه اللغة كانت خالية من الإعراب مطلقا أو عند العامة دون الخاصة أو هل الإعراب كان

فى لغة الشعر دون الخطابة والكتابة أو أنه كان خاصا بلغة أواسط الجزيرة دون أطرافها لمجاورتها أمم الأعاجم بقيت فصيحة معربة فى مبدأ الإسلام بين العرب الخلف والموالى النابتين فىهم، أما الطارئون عليهم فكانت لغتهم تقترب من الفصاحة أو تبتعد عنها على حساب طول لبثهم فىهم، أو قصر مقامهم عندهم - وقد تقدم أن أشرنا إلى ذلك من الجزء الأول فصل المحادثة ولما فتح المسلمون الأمصار، وكثر الأعاجم وأسرى الحروب ودخل الإسلام منهم ألوف وأصبحوا لهم إخوانا وشركاء فى الدين وتم بينهم التزاوج والتناسل نشأ للعرب فرية من فتيااتهم الأعجميات اختلطت عليهم ملكة العربية لتلقيهم عن آباءهم عربية فصيحة، وعن أمهاتهم خليطا منها ومن الأعجمية، وكذلك كان الشأن فى المتعربين من الأعاجم إذا أصبحت لهم لغة تخاطب عربية مشوبة بشىء من اللحن والكلمات الدخيلة وغير ذلك من أنواع التغيير والتبديل والتصحيف والتحريف.

أما العرب أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم فى جزيرتهم مثل ما كانت عليه فى جاهليتهم - وأما سكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر فالعامة منهم المخالطون للأعاجم كثيرا بالمعاملة والتسوق لم تخل لغتهم من لحن أو هجنة، والخاصة منهم تشددوا فى المحافظة على سلاقتهم وتحاموا التزاوج بالأعجميات وبالغوا فى تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليروضهم على الفصاحة وينشأوا نشأة الأعراب الفصحاء أو يحضروا لهم المؤدبين، والمعلمين من أفصح الناس وأعلمهم ليخرجوهم فى الإعراب واللسن.

كذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية وأمرؤهم اقتداء بكبيرهم معاوية بن أبى سفيان فى تربية ابنه يزيد ومن لحق من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وأشراف العرب فى زمانهم ولو لحن مرة عد ذلك عليه عارا لا يمحي، وسيئة لا تزول ومن هؤلاء اللحنين «عبيد الله بن زياد» - كان واليا على العراق فى مدة «معاوية» و«يزيد» ابنه وكانت أمه فارسية - والوليد بن عبد الملك وهو الخليفة الأموى الذى أشفق عليه أبوه من أن يرسله إلى البادية فتربى فى مصر، وتعلم العربية بالصناعة فعرض لكلامه بعض اللحن و«خالد القسرى» والى العراق من قبل الخليفة هشام وكانت أمه نصرانية وكان من أبلى الناس وأخطبهم وعد عليه بعض اللحن - مع أن بعض هؤلاء كان من أبلى الناس وأبينهم - ومن هنا تعلم السرف فى شروع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والإعجام، كذلك كانت السلامة من اللحن شرفا عظيما يعد من مفاخر الرجال، ولقد ذكروا أن أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل الشعبى، وعبد الملك

والحجاج وابن القرية وكان الحجاج أفصحهم على أنه قد نسب للحجاج لحن في بعض المواطن وكذلك عبد الملك وكان اللحن محتتملا مع الغضاضة فى غير القرآن فلما طمت المصيبة بوقوع اللحن فى القرآن لم يكن من بد من وضع النحو واختراع الشكل والإعجام.

٢ - الخطابة:

وكانت الخطابة فنا لا بد منه للعرب فى الجاهلية لغلبة الأمية عليهم والتجائهم إلى اللسان بدل القلم لتملكهم زمام الفصاحة واستجابتهم لرؤسائهم عند الحاجة ولتفرقهم قبائل يمكن اجتماع كل منها فى مكان لاستماع الخطيب، وكانت تقوم على إثارة الشعور وإيقاظ الوجدان واعتمدت على الأدلة الانفعالية والعبارات الرائعة الموجزة وكثرت فيها الفواصل والأسجاع فلما ظهر الإسلام وكان ظهوره نهضة عامة دينية وسياسية واجتماعية كما تقدم وظهرت الحاجة إلى الخطابة إذ هى الأداة لمثل ذلك لنشر الدين والدفاع عنه وبيان أحكامه ورسم سياسة الدولة الدينية والتشريعية، ولما جاء عصر الأمويين كنا أمام نظام إسلامى داخلى فيه هذه الأحزاب السياسية والفرق الدينية ذات الآراء المختلفة فى أصول الحكم ونظام الدولة، وهى أحزاب تتحارب باللسان كما كانت تتحارب بالسنان ولها أفكار تقوم على الجدل الدينى والسياسى وذلك أمر واضح نشأ فى أقرب درجاته منذ صفيين وتكوين أحزاب الخوارج والشيعية والجماعة ثم الزبيريين والمهالبة الذين اتخذوا من الموضوعات والمسائل الدينية التى دار حولها رجال هذا العهد بالبحث والجدل والتشريع فى مدارس شتى شغلت الناس عهدا طويلا.

معنى ذلك أن الدين بتعاليمه - العبادات والمعاملات - كانت الموضوع الأول الذى يعنى به المسلمون إذ ذاك فهو الأساس للنظام الاجتماعى والدينى الجديد، كذلك كانت الأوضاع الجديدة للدولة وما تستدعى من تدوين الدواوين، وتنظيم شئون الخراج، وتولية الولاة، وكتابة التقاليد، ومسائل الجيوش من بين الموضوعات التى استجدت واضطرت اللغة أن تتسع لها والأدب أن يسجله ويصوره وإذا كنا قد أرجعنا رقى الخطابة فى صدر الإسلام إلى ما ولع به القوم من تقليد القرآن الكريم والحديث الشريف، وإلى ما كان من دواع دينية واجتماعية فإن لنا أن نتنبأ لهذا الرقى زيادة وتقدما منذ العصر الأموى فكل استفادة هناك تضاعف أثرها وجل شأنها هنا كغرس كانت باكورتها فى صدر الإسلام واليوم أينع ثمره، وتم نضجه وزادت غلته فالقرآن لم يك قد تم استيعاب حفظه فى صدر الإسلام لما كان عليه

العهد من قصر ولما شغلوا خلاله من الجهاد والغزو والتوسع والفتح، ولكن بعد أن كتب عثمان المصاحف ووزعها على الأمصار عمل خلفاء بنى أمية على استنساخها وتوزيعها فتيسر للناس حفظه وشرحه ودراسته وتهيأ لهم أن يتخلقوا فى المساجد مستمعين لابن عباس فى مكة ولزید بن ثابت فى المدينة وغيرهما فى الأمصار يشرحون للناس المشكل من القرآن ويعلمونهم الناسخ والمنسوخ، فكان لدراسة القرآن سوق نافقة بالخير العظيم على اللغة والدين.

وكذلك كان الشأن فى حديث رسول الله ﷺ فقد كثرت الحاجة إليه والاستدلال به فى كل ما يقع للمسلمين أو يجرى بينهم من خلاف حتى انتهى جمعه وتدوينه أيام عمر ابن عبد العزيز.

كذلك كان للوعظ الدينى المستمد من القرآن والحديث أثره القوى، ونفعه العظيم خصوصا بعد أن رتب معاوية ومن خلفه أناس يعظون فى المساجد بعد أن كان مقصورا على الأئمة والولاة، كل هذا كان له دخل فى ازدهار الخطابة السياسية والدينية والاجتماعية على ما سنبينه بعد.

١ - ازدهار الخطابة السياسية:

لقد كان إعلان خلفاء بنى أمية أنهم أحق الناس بقيادة هذه الأمة وسياستها وحكمها فبدأ فى خطبهم النزعة السياسية وغلب عليها التحرر من التقاليد الدينية وكثر فيها الاستشهاد بالشعر وقل الاقتباس من القرآن بل غلا بعضهم فترك الحمد فى أول الخطبة كما فى خطبة زياد البتراء.

وهذا النوع كان يغلب عليه ضخامة اللفظ، وشدة الأسر، والعنف والوعد والوعيد والتهديد والإسراف فى السب والشتم حتى لقد استن معاوية سنة سيئة وهى سب «على» على المنابر - إلى أن أبطلها عمر بن عبد العزيز وهذا المظهر السياسى حتم على الدولة أن يكون لها خطباء يناضلون عنها، ويبشرون بمذهبها كما قضى على الأحزاب الأخرى أن يكون لها أيضا خطباء وهذا من شأنه أن يروج الخطابة ويقويها ويحمل أصحابها على استنباط الحجج، وحسن التفكير وقوة التأثير وخير ما يمثل هذا النوع هو خطب «زياد والحجاج».

٢ - ازدهار الخطابة الدينية:

كانت الجماعات التي تناوئ الأمويين ترى أن بنى أمية لا يصلحون للخلافة ولا لحكم المسلمين فنددوا بالحكام وظلمهم، وتنكبهم عن الجادة، والتقصير في تنفيذ أحكام الشريعة، وهذه النزعة في الواقع متشحة برداء السياسة لأنها تدور وتهدف إلى تغيير الأوضاع، وقلب نظام الحكم والخروج على الحكام، وإنما لاصطباغها بالصبغة الدينية وامتلاكها الأفئدة، وصدورها من أناس لهم نزعات دينية قوية متمكنة من نفوسهم وهذا جعلنا نميز هذا اللون عن قسيمه السياسى كما تشيع فى هذه الخطب الدنيا والتحذير من غرورها ومفاتها وتوجيه النفوس إلى الآخرة ونعيمها وغير ذلك من الأفكار الدينية التى تطمئن لها النفوس، وتروق لها المشاعر، وتخبت لها القلوب، وكان خطباء هذا اللون يلتزمون الحمد فى أولها والصلاة والسلام على النبى ﷺ وكثرة الاستشهاد بالقرآن والاقتباس منه حتى إن بعضها كان قرآنا كخطبة «مصعب بن الزبير».

وهذا النوع أفاد الخطابة من ناحية التفكير العميق ومن ناحية التعبير الدقيق الواضح وخير ما يمثل هذا النوع هو خطب الخوارج والعلويين والزبيريين.

٣ - ازدهار الخطابة الاجتماعية:

كان المجتمع الأموى يزرع تحت أعباء من الخلافات الحزبية المتنافرة المتلاحية فعملت على تفرق الأمة إلى طوائف وجماعات وأن تتراشق بالكلام، وتتصاول بالحجج، وتتدافع بالرأى، وتتقارع بالتهم ولكل جماعة نشاط دائم، وحركة مستمرة، وقول تردده السيئات، وتتناقله المجامع.

أضف إلى ذلك اختلاطها بالأمم المفتوحة ذات المظاهر الحسية والحضارة، والثقافة، وما يستتبع ذلك من ترف الحياة، والعادات والتقاليد، والنظام المتصل بالقصور، والاستماع للغناء. كل ذلك أفاد الخطابة وأكسبها مزيجا من الأدب الطريف الذى يلمح إلى معالم النفس الأعجمية على الرغم من هذا الأسلوب العربى الطاغى وهذا اللون من الخطابة اشترك فيه كل الطوائف من خلفاء وأمراء، وحزبيين، ورجال القبائل من كل الأصقاع، وجميع البقاع.

أسلوب الخطابة:

لقد حرص خطباء هذا العصر على أن يكون لكلامهم موضوع مرتب واحد له مقدمات ونتائج بحيث يجمع بين الفائدة والتأثير فبدأ فى نثرهم ظاهرة معنوية هى التنسيق المعنوى، فمعانى الخطبة مرتبة متواصلة فى منطق أدبى سليم لا اضطراب ولا فوضى، متماسكة الفقرات متلائمة مترابطة لها هذه الوحدة التى نفقدها فى الأدب الجاهلى فإنك تلاحظ مثلاً «قس بن ساعدة» فى خطبته عبارة عن سجع منثور، وكل سجة فيها معنى مستقل بحيث يمكنك التقديم والتأخير والحذف والذكر دون أن يؤثر ذلك فى صورة الخطابة ونسقها لأنها أفكار منثورة.

أما فى عصرنا الذى نؤرخه فالمعانى خضعت للنظام فى تأليفها وابتكارها وقيمتها لأن العصر لم يعد عصراً جاهلياً فيه فراغ وإنما هو عصر خلاف ودعوة وتزاحم ومنافسات ونظام حضرى فاستدعى أن يكون الأدب الأموى صورة ملائمة للدولة الإسلامية الجديدة، كذلك حرص خطباء هذا العصر وأدباؤه على العناية اللفظية بتهذيب اللفظ واختيار أروجه وأليقه بهذا العصر الجديد، وصوغ العبارات وتيسيرها والانتفاع بالقرآن وأحاديث الرسول والاعتباس والتضمين لهما والخضوع آخر الأمر لقواعد الخطابة أولها وآخرها فكان فى الأساليب بلاغة وسمو من حيث الألفاظ المفردة والجمل المركبة، والعبارات المرسلة فإن هذا العهد الجديد كسر من حدة العنجهية الجاهلية ورسم للأدباء مثلاً علياً لاختيار الألفاظ، وصوغ التراكيب، وإحكامها مسلسلة جميلة أو جزلة قوية.

كذلك كان للتهذيب النفسى والذوقى أكبر أثر فى هذا العمل ذاته فأثر العصر الجديد قائم على طريقة مباشرة بما عرض للقرآن من بيان معجز وبما هذب الدين من النفوس والأذواق، فإذا تتبعت فحول الخطباء رأيت جزالة قوية وأساليب فخمة تعيد إليك الأدب الجاهلى ولكن بصورة أبدع نظاماً وأجزل أسلوباً، وأطرق معانى تذكر دائماً بفضل القرآن، وبراعة تصويره، وجمال تعبيره فى أنماط من الأدب الإسلامى الجميل نجمه فى المظاهر الآتية:

١ - ترك الحوشى من الكلام غالباً ولا سيما عند الخطباء الدينيين.

٢ - الجزالة: وهى عكس الرذالة والسخف الذى ينحو نحو العامى الساقط وخصوصاً

عند «زياد والحجاج».

٣ - العبارات الإسلامية من القرآن والحديث اقتباسًا أو تضمينًا ، خصوصًا عند الخطباء الدينيين.

٤ - الأسلوب القرآني في القصص والجدل والتمثيل لقيام العصبية وشدتها ولسخاء الحكام وكثرة ما كانوا يغدقون.
نماذجها :

١ - خطب «معاوية» بالمدينة سنة ٤١ عام الجماعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
«أما بعد ، فإنني والله ما وليتها بمحبة منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالذتكم بسيوفي هذا مجالدة ، ولقد رضت لكم نفسي على عمل «ابن أبي قحافة» ، وأردتها على عمل «عمر» فنفرت من ذلك نفارًا شديدًا ، وأردتها على سُنِّيَّات «عثمان» فأبت عليّ فسلكت بها طريقًا لي ولكم فيه منفعة ، مؤكلة حسنة ، ومشاربة جميلة فإن لم تجدوني خيركم فإنني خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يُشتفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني^(١) وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه فإن أتاكم مني خير فاقبلوه فإن السيل إذا جاد^(٢) يُثري ، وإن قل أغنى^(٣) وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة» ثم نزل.

٢ - لما ولي «النعمان بن بشير الأنصاري» «الكوفة» خطب فقال :

«أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما يهلك الرجال ، وتسفك الدماء وتغصب الأموال ، إنني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لم يثب على ، ولا أشاتمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالفرقة ولا الظنة ، ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتهم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم فو الله الذي لا إله إلا هو لأضربنكم بسيوفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما إنني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يريده الباطل»^(٤).

وخطب عتبة بن أبي سفيان «بمصر» فقال :

«يا حاملِي آلام أنوف رُكبت بين أعين إنني قَلَمْتُ أظفاري عنكم ليلين مَسَى لكم وسألتنكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقيا عليكم ، فإما إذا أبَيْتُم إلا الطعن على السلطان والتنقص

(١) دبر أذني : وراءها أي لم أصغ إليه.

(٢) جاد : كثر.

(٣) أغنى : أي عن المسألة.

(٤) تاريخ الأدب العربي/ تأليف الدكتور عمر فروخ - الجزء الأول ص ٣٨٦ ط دار العلم للملايين - بيروت.

للسلف، فوالله لأقطعن بطون السباط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم، من بالمعصية، ولا أويكم من مراجعة الحسنى إذا صرتم إلى التى هى أبر وأتقى».

الخطبة البتراء:

لما ولى «زياد» البصرة قدمها فى غرة جمادى الأولى من سنة ٤٥هـ، (٢٠ تموز ٦٦٥م) والفسق فيها كثير فاش ظاهر، (فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها) فقال: «أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماءكم، من الأمور العظام التى ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته أتكفونون كمن طرفت عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية؟ ألم يكن فيكم نهاء تمنع الغواة عن الدلج الليل، وغارة النهار؟ قد بنتم القرابة، وباعدتم الدين أتعذرون بغير العذر وتغضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيهة صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا. ما أنتم بالحلماء وقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل ماكرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أترقوا وراءكم كنوسا من مكانس الريب حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا»^(١).... إلخ.

وللخطبة بقية راجعها فى مظانها الرئيسية.

٢ - الخطابة الدينية:

خطب «مصعب بن الزبير» لما قدم «العراق» واليا عليها من قبل أخيه «عبد الله بن الزبير»، و«عبد الملك» يومئذ خليفة بالشام سعد المنبر ثم قال «بسم الله الرحمن الرحيم» طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين «وأشار بيده نحو الشام ثم قال (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وأشار بيده نحو الحجاز ثم قال: «ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» وأشار بيده نحو العراق ثم نزل.

(١) تاريخ الأدب العربى/ تأليف الدكتور عمر فروخ - الجزء الأول ص ٣٨٩ وما بعدها.

ومنها خطبة «عبدالله بن يحيى» «زعيم» «الأباضية» لما استولى على اليمن سنة ١٢٩هـ. حمد الله ثم أثنى عليه صلى على نبيه ﷺ ووعظ، وذكر، وحذر ثم قال: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه، وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالا لا نبغى به بديلا، ولا نشترى به ثمنا قليلا، وحرمنا الحرام، ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا الله وإلى الله المشتكى، وعليه المعول، من زنى فهو كافر ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شك في أنه كافر فهو كافر - ندعوكم إلى فرائض بينات، آيات محكمات، وآثار مقتدى بها ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعد الوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية ولاية الله، والعداوة لأعداء الله».

الحوار:

هو ذلك الفن النثرى الذى يشبه المفاخرات والمنافرات الجاهلية من حيث قيامها على العصبية والنصرة القبلية وهذا اللون من الكلام قد ظهر فى العصر الأموى أقرب ما يكون إلى لغة الخطبة نتيجة لكثرة الأحزاب السياسية والفرق الدينية والآراء المختلفة، ولحرية الرأي التى سادت فى هذه الفترة دخل كبير فى ظهوره ظهورا ملأ الأسماع، وامتلك القلوب لما فيه من القدرة البيانية، فهو فن قديم ظهر فى ثوب جديد، واسم جديد لأن الاسم القديم لا يتفق مع نهى الدين عن تفاخر الجاهلية ودعوة العصبية. ولذلك لما ظهر الإسلام توارت هذه المفاخرات ما عدا بصيصا فى صدر الإسلام - لقوة الوازع الدينى وصرامة القائمين على أمره مع قلة الخلاف السياسى حتى إذا ما تملك الأمويون وأحيوا العصبية ظهر هذا الفن من جديد وأصبح فرعاً من فروع الأدب ذا منزلة وذا خطر ففيه يناجى القائل الفكرة مستعملاً البديهة حريصاً على إفحام الخصم ونقض القول ولقد فتح «معاوية» الباب على مصراعيه إذ كانت سياسته قائمة على التغاضى عن القول، والتحلم إزاء التثريد فهو القائل «إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا» وهو القائل أيضاً: «إن لم تكن إلا كلمة يشترى بها مشتى جعلتها تحت قدمى، ودبر أذنى».

والحوار يعتمد على موادة البديهة، وإسعاف خاطر أكثر من اعتماده على الروبة والتأنق لأنه فى أكثر أحواله وليد الساعة، وعفو البديهة فلا فرصة فيه للتجيد والتنميق.

أبرز ما يميز المحاورات عدة خواص:

- ١ - اعتمادها على الإيجاز مع قوة العبارة، والمهارة في التصوير.
 - ٢ - قلب حجة الخصم عليه كما ترى في حوار «ابن عباس، ومعاوية»، أو قلب الأوضاع قلبا فكاها كما في حوار الغضبان مع الحجاج أو قلبا مبنيا على التعريض كما في حوار «عقيل ابن أبي طالب» ومعاوية إذ أراد «معاوية» من «عقيل» أن يلعن عليا فلعن «معاوية» بطريق خفي.
 - ٣ - حسن التخلص كما تخلص «الأحنف» من معاوية بقوله: «أخافك إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت» كما تخلص «عقيل» من لعن «علي»، وكما تخلصت الخارجية من الحجاج على أن الحوار الواحد يصطبغ بصبغة واحدة من هذه الخواص وقد يصطبغ باثنتين أو أكثر.
- وإليك أمثلة من الحوارات توضح ما قلناه:

تجاوز «عبد الله بن عباس» نائباً عن «علي بن أبي طالب» مع الخوارج:

- ابن عباس: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟
- الخوارج: قد كان للمؤمنين أميراً فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له.
- ابن عباس: لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يُقرَّ على نفسه بالكفر.
- الخوارج: إنه حكم.
- ابن عباس: إن الله عز وجل - قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل «ويحكم به ذوا عدل منكم» فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟».
- الخوارج: إنه قد حكم عليه فلم يرَضَ.
- ابن عباس: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما.
- الخوارج: - بعضهم لبعض - لا تجعلوا احتجاج قريش حجة فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥٨].
- وقال عز وجل فيهم ﴿وَتَذَرِيهِمْ قَوْمًا لَّدَا﴾ [سورة مريم: آية ٩٧].

خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه

خطب الحسن بن علي عليه السلام بعد وفاة أبيه فنعاه فقال: «لقد قتلتم الليلة رجلاً في ليلة نزل فيها القرآن، وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام، وفيها قتل «يوشع بن نون» فتى موسى عليهما السلام، والله ما سبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحد يكون بعده، والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبعثه في السرية، وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله، ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه، ثم قال:

«أيها الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا البشير بن البشير أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً زَرَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [سورة الشورى: آية ٢٣]. فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبد الله بن العباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة! فبايعوه ثم نزل عن المنبر.

خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

«أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، سماه كُرْهاً ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: آية ٤٦]. فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، بلغني أن «معاوية» بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة، حتى ننظر وتنظروا ونرى وتروا».

وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا، فما تكلم منهم أحد ولا أجابه بحرف، فلما رأى ذلك «عدى بن خاتم» قام فقال:

مقال «عدى بن حاتم»:

«أنا ابن حاتم، سبحان الله! ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم! أين خطباء مُصْرِّ الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا أجَدَّ الجَدَّ راوغوا كالثعالب أما

تخافون مقت الله ! ولا عيبها وعارها ! ثم استقبل «الحسن» بوجهه فقال : أصاب الله بك المرشد وجنبك المكاره ، ووفقك لما تحمد وروده وصدوره قد سمعنا مقاتلك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت ورأيت ، وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب أن يوافيني فليواف «ثم مضى لوجهه إلى النخيلة وقام ثلاثة آخرون من أصحاب «الحسن» فأنبوا الناس ولا موهم وحرصوهم ، وكلموا ، «الحسن» بمثل كلام «عدى بن حاتم» فقال لهم صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا ، ثم نزل ، وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج ، وسار «الحسن» في عسكر عظيم وعدة حسنة .

خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى «الحسن» ﷺ تفرق الأمر عنه ، بعث إلى «معاوية» يطلب الصلح ، فبعث «معاوية» إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف في أشياء اشتراطها - ثم قال «الحسن» في أهل العراق فقال : «يا أهل العراق إنه سخي بنفس عنكم ثلاث» : «قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهاكم متاعى» .

رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه

خطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين - رضى الله عنهما - جالسان تحت المنبر ، فذكر علياً عليه السلام فنال منه ، ثم نال من «الحسن» فقام «الحسين» ليرد عليه فأخذه «الحسن» بيده فأجلسه ، ثم قام فقال : أيها الذاكر علياً : أنا الحسن وأبى علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمى «فاطمة» وأمك «هند» و جدى رسول الله ﷺ وجدك حرب وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله أئمتنا ذكرا وأئمتنا حسبا ، وشرنا قديما ، وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا : فقال طوائف من أهل المسجد آمين .

خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه ﷺ في أيامه في بعض مقامات أنه قال : «نحن حزب الله المفلحون ، وعتره رسول الله ﷺ المقربون ، وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين الذين خلفهما رسول الله ﷺ والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شيء

— لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والمعول عليه في كل شيء، لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإطاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة: فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان إنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم: «لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنى جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون» تتلقون الرياح أزرًا وللسيوف جزرا، وللعمد حطا، وللسهام غرضا، ثم: (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا).

خطبة أخرى له

ومن خطبة عليه السلام:

«اعلموا أن الحلم زين، والوقار مودة، والصلة نعمة والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسفّه ضعف، والقلق ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة».

خطبة «عابس بن أبى شيب الشاكري»

فقام «عابس بن أبى شيب الشاكري» فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإنى لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما فى نفوسهم، وما أعرك منهم، والله أحدثك عما أنا موطن نفسى عليه والله لأجيبنكم إذا دعوتهم، ولأقاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفى دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله، فقام «حبيب بن مظاهر الفقسعي» فقال:

«رحمك الله قد قضيت ما فى نفسك بواجز من قولك» ثم قال: «وأنا والله الذى لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه» وقال غيرهما مثل قولهما. فبلغ ذلك «النعمان بن البشير» فخرج فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

خطبة النعمان بن بشير

«أما بعد، فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال».

وكان حليما ناسكا يحب العافية، قال: «إني لا أقاتل من لم يقاتلني ولا أثب على من لا يثب على، ولا أشاتمكم، ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالفرقة»^(١) ولا الظنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتهم صفحتكم لى ونكثتم بيعتكم، وخالفتهم إمامكم، فوالله الذى لا إله غيره لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمة فى يدى ولو لم يكن لى منكم ناصرة أما إنى لأرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل.

فقام إليه «عبد الله بن مسلم بن سعيد الحرمل» حليف بنى أمية فقال: «إنه لا يصلح ما ترى إلا الغشم، إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك لرأى المستضعفين» فقال:

«أن أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون من الأغربين فى معصية الله» ثم نزل.

وكتب «عبد الله بن مسلم» وغيره إلى «يزيد» أن يبعث إلى الكوفة رجلا قويا غير «النعمان»، فبعث «عبيد الله بن زياد» وكان على البصرة - وضم إليه الكوفة، فصار إليها فلما نزل القصر نودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخرج إليهم.

خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) ولانى مصركم وشركم، وأمرنى بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى مسامعكم، وأنا متبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر، وسوطى وسيفى على من ترك أمرى وخالف عهدى، فليبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد».

ثم ترك فأخذ العرفاء والناس أخذا شديدا، وبلغ ذلك «مسلم بن عقيل» فخرج من دار المختار، حتى انتهى إلى دار «هانئ بن عروة المرادى» لائذا به، ونمى خبره إلى «ابن زياد» فبعث إلى «هانئ» فجاءه فأمره أن يأتية بمسلم فقال: لا والله لا أجيبك به أبدا أنا أجيبك بضيفى تقتله! وطال بينهما اللجاج فى ذلك، فضربه «ابن زياد» بالقضيب، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده، حتى كسر أنفه، وسيل الدماء على ثيابه، ونثر لحم خديه على لحيته، حتى كسر القضيب، ثم أمر بحبسه.

(١) القرقة: التهمة، وقرفه بالشئ، اتهمه.

خطب أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هانثا وحبسهُ ، خشى أن يثب الناس به فخرج فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطه وحشمه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
«أما بعد أيها الناس ، فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا ، ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلولوا وتقتلوا ، وتجفوا وتحرموا ، إن أخاك من صدقك وقد أعذر من أنذر ، وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب «هانئ» وحبسهُ ، فأمر أن ينادى فى أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً وأقبل نحو القصد ، فتحرز فيه ابن زياد وغلق الأبواب وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : «أشرفوا على الناس ، فمنا أهل الطاعة الزيادة والكرمة وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم فصول الجنود من الشام إليهم» .

خطبة «عبيد الله بن زياد»

ولما انقضت جموع «ابن عقيل» خرج «عبيد الله بن زياد» إلى المسجد ، وأمر فنودى «ألا برئت الذمة من رجل صلى العتمة إلا فى المسجد» فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
«أما بعد فإن «ابن عقيل» السفية الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه فى داره ، ومن جاء به فله ديتة ، اتقوا الله عباد الله ، والزموا طاعتكم وبيعتمكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً .
يا حصين بن نمير ، ثكلتك أمك إن صاح باب سكة من سكك الكوفة ، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة ، ما بعث مراصده على أفواه السكك وأصبح غدا واستبد الدور ، وحبس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل ثم نزل .
وأصبح ابن تلك العجوز التى أوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد بن الأشعث فى ستين أو سبعين رجلاً تأتى به وأمره به ، فصعد إلى أعلى القصر ، ورب عنقه فهوى رأسه إلى الأرض ، وأتبع جسده رأسه ثم أمر بهانئ بن عروة ، فأخرج إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان «مسلم» حيث تحول إلى دار هانئ ، كتب إلى «الحسين» إنى قد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً فجعل الإقبال ، حتى يأتيك كتابى فإن الناس كلهم معك ليس لهم

فى آل معاوية رأى ولا هوئى فسار الحسين من مكة» فى ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ متوجهاً إلى الكوفة وهو لا يعلم بحال مسلم.

خطب عبيد الله بن زياد

ولما نمى إلى «عبيد الله بن زياد» خبر الكتاب الذى كتبه «الحسين» ﷺ إلى أشراف البصرة يستنصرهم سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد، فو الله ما تقرن بى الصعبة، ولا يقعق لى بالشنان وإنى لنكل لمن عادانى، وسمُّ لمن حاربنى، أنصف القارة من رامها».

يا أهل البصرة: إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم «عثمان بن زياد بن أبى سفيان» وإياكم والخلاف والإرجاف، فو الذى لا إله غيره لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف، لأقتلنه وعريفه ووليه، ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لى، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق أنا ابن زياد، أشبهته من بين من وطنى الحصى، ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم».

خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة:

أيها الناس: لا يغرنكم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن الموادع والله لئن خرج علينا خارج لنقتله، ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا، لنأخذن الوالد بولده، والمولود بوالده، ولنأخذن الحميم بالحميم والعريف بما فى عرافته، حتى يدينوا الحق، ويذلوا للطاعة.

رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه «المسيب بن نجبة» فقطع عليه منطقه ثم قال:

«يا ابن الناكثين: أنت تهددنا بسيفك وغشمك؟ أنت والله أذل من ذلك، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك، والله إنى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانى أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك، وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولاً سيديداً، إى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحا لك وقابلاً لك».

فقال «إبراهيم بن محمد بن طلحة»: إى والله ليقتلن وقد أوهن ثم أعلن.

دعاؤه وقد صحبته الخيل

ولما صحبته الخيل رفع يديه فقال :

«اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولّى كل نعمة، وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة».

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضا

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

«يا أمير المؤمنين، لا تدعنّ مروان، يرمى جماهير قريش بمشاقصه ويضرب صفاتهم بمعوله، أما والله لولا مكانك لكان أخفّ على رقابنا من فراشه، وأقلّ فى أنفسنا من خشاشه، وايم الله لئن ملك أعنة الخيل تنقاد له، لتركبن منه طبقا، تخافه».

فقال معاوية: إن يطلب مروان هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن يتركه يتركه لمن فوقه، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، ولا يذكركم عند ملمة يسومكم خسفا، ويسوقكم عسفا».

فقال «ابن الزبير»: إذن والله يطلعه عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد، حافاتها الأسل، لها دوى كدوى الريح تتبع غطريفا، من قريش لم تكن أمه راعية ثلة».

فقال «معاوية»: «أنا ابن هند، أطلقت عقال الحرب فأكلت ذروة السنام، وشربت عنفوان المكرع، وليس للأكل بعدى إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق» فسكت ابن الزبير.

خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لما قتل «الحسين» عليه السلام - قام «عبد الله بن الزبير» - فى أهل مكة وعظّم مقتله، وعاب على أهل الكوفة خاصة، ولام أهل العراق عامة، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه - وصلى على محمد ﷺ :

«إن أهل العراق غدر وفجر إلا قليلا، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق، وإنهم دعوا حُسَيْنًا لينصروه ويولوه عليهم فلما قدم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: «إما أن تضع يدك فى أيدينا، فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلما، فيمضى فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه

قليل في كثير - وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحدا. أنه مقتول، ولكنه اختار الميته الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسيناً، وأخرى قاتل الحسين لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظوناء عنهم، ولكنه حُم نازل، وإذا أراد الله أمراً لن يُدفع. أفعبد «الحسين» نطمئن إلى هؤلاء القوم، ونصدق قولهم، ونقبل لهم عهداً؟ لا والله نراهم لذلك أهلاً، أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه أحق بما هم فيه وأولى به في الدين والفضل، أما والله ما كان يبذل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شراب الحرام، والمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد (يعرض بيزيد) فسوف يلاقون غيًّا فثار إليه أصحابه، فقالوا له: أيها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك حُسين ينازعك في هذا الأمر وقد كان يبايع الناس سرا، ويظهر أنه عائذ بالبيت.

خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدم وفد من العراق على «عبد الله بن الزبير» فأتوه في المسجد الحرام في يوم الجمعة فسلموا عليه، فسألهم عن «مصعب» أخيه، وعن سيرته فيهم فقالوا: أحسن الناس سيرة، وأفضاه بحق، وأعدله في حكم، فصلى «عبد الله» بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

قد جربوني ثم جربوني من غلوتين ومن المئين
حتى إذا شابوا وشيبوني خلو عنانى ثم سيَّبوني

أيها الناس: «إنى قد سألت هذا الوفد من أهل العراق، عن عاملهم» مصعب بن الزبير، فأحسنوا الثناء عليه، وذكروا عنه ما أحب، ألا إن مصعباً أطبى القلوب، حتى ما تعدل به، والأهواء حتى ما تحول عنه، واستمال الألسن بثنائها، والقلوب بنصحها، والنفوس بمحبتها فهو المحبوب في خاصته المحمود في عامته، بما أطلق الله به لسانه من الخير، وبسط يده من البذل» ثم نزل.

خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل «عبد الملك بن مروان» مصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله إلى «عبد الله بن الزبير» أضرب عن ذكره أيما حتى تحدث به إماء مكة في الطريق، ثم صعد

المنبر فجلس عليه مليا لا يتكلم، والكآبة على وجهه، وجبينه يرشح عرقا، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه: ما له لا يتكلم، أتره يهاب المنطق؟ فوالله إنه ليبيب الخطباء. قال: لعله يريد أن يذكر مقتل «مصعب» سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وغير ملوم، ثم تكلم فقال: «الحمد لله الذى له الخلق والأمر، ومُلِك الدنيا والآخرة، ويؤتِى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء فإنه يعز من يشاء ويذل من يشاء، أما بعد، فإنه لن يعز الله مَنْ كان الباطل معه، وإن كان معه الأنام طرا، ولم يذل من كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق، بل الغدر والشقاق، فساءنا وسرنا».

أتانا أن «مصعبا» قتل رحمة الله عليه ومغفرته، فأما الذى أحزننا من ذلك فإنه لفراق الأخ الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمة عند المصيبة ثم بدعوى من بعد ذوى الرأى إلى جميل الصبر، وكريم العزاء وأما الذى سرنا منه فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له، وأنه عز وجل - جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى.

أسلمه الطغام، الصم الآذان، أهل العراق، إسلام النعم المخطمة وباعوه بأقل الثمن الذى كانوا يأخذون منه، فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين. إنا والله لا نموت حتف آفاقنا، ولكن قصفا بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط، ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشتر البطر وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ثم نزل.

خطبة له أخرى

وقال الجاحظ: لما جاء قتل أخيه مصعب قام خطيباً بعد خطبته الأولى، فقال: «إن مصعباً قدم أئره، وأخبره خبره، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة، وترك حلبة أهل الشام حتى غشيته فى داره، ولئن هلك مصعب فإن فى آل الزبير خلفاً منه».

خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل «عبد الملك بن مروان» «عمرو بن سعيد الأشدق» قام خطيباً فقال: إن أبا ذبّان قتل ليطم الشيطان، كذلك نولّى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون.

خطبته يوم قتله

وخرج من عندها (أمه أسماء بنت أبي بكر) فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إن الموت قد تغشاكم سحابه، وأحدق بكم ربابه، واجتمع بعد تفرق، واراجحن بعد تمشق، ورجس نحوكم رعدده وهو مقرر عليكم برقه وقائد إليكم البلايا، تتبعها المنايا فاجعلوا السيوف لها غرضا، واستعينوا عليها بالصبر وتمثل بأبيات ثم اقتحم يقاتل وهو يقول:

وقد جدّ أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحروب لها على ساق

خطبة مصعب بن الزبير

بعث «عبد الله بن الزبير»، أخاه مصعبا واليا على البصرة سنة ٦٧ هـ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلِيحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ [سورة القصص: الآيات ١ - ٤]. وأشار بيده نحو الشام ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وأشار بيده نحو الحجاز ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأشار بيده نحو العراق.

خطبة «معاوية» بالمدينة عام الجماعة

قدم «معاوية» المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلّقاه رجال قريش. فقالوا: «الحمد لله الذي أعزّ نصرك، وأعلى كعبك، فما رد عليهم شيئا حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فإنني والله ما وليتها جد علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيوفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل «عمر» فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها على سنيات «عثمان» فأبت عليّ، فسلكت

بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم فإنى خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذنى وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يثرى ، وإذا قل أغنى ، إياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة ثم نزل.

خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى ﷺ ثم قال : «أما بعد ، أيها الناس إنا قد قدمنا عليكم ، وإنا قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعا كل الناس فإن كانت محمداً فلا بد من مذمة فلوما هونا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتى أخفيت أوبقت وإن ذكرت أو ثقت» ثم نزل.

خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «يا أهل المدينة ، إنى لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيبون الشىء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعة نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق ، وفى كلِّ بلاغ ولا مقام على الرزية».

عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر

دخل ابن الزبير على أمه «أسماء بنت أبى بكر» ، فى اليوم الذى قتل فيه وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

«يا أمه : خذلنى الناس حتى ولدى ، وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك؟ فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلك نفسك ، وأهلك من قتل معك ، وإن قلت كنت على

حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن والله لضربة بالسيف في عزّ، أحبّ إليّ من ضربة بسوط في ذلّ». قال: إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي، قالت: يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها.

فدنا منها وقبل رأسها، قال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيا إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله، أن تستحل حرمه ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي فانظري يا أمه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشدد حزنك وسلمي لأمر الله، إن ابنك لم يعتمد إتيان منكراً، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يعتمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي - أنت أعلم بي ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي حرج حتى أنظر إلام يصير أمرك قال: يا أمه جزاك الله خيراً فلا تدعى الدعاء لي قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبداً فمن قتل على باطل فقد قتل على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظماً في هواجر المدينة وقلة وبره بأبيه وبى، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورأيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ثم ودعها وخرج.

خطب عمر بن العزيز توفى سنة ١٠١ هـ

أولى خطبه:

قال العُتُبِي: أول خطبة خطبها عمر بن العزيز - رحمه الله قوله: أيها الناس، أصلحوا سرائركم، تصلح لكم علانيتكم، وأصلحوا آخرتكم تصلح دنياكم، وإنّ امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمعرق في الموت.

خطبة له بالمدينة

وفى سنة ٨٧ هـ ولّى الوليد عمر بن العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة من فقهاءها، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن قطع أمرا إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأشهد الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى» فخرجوا يجزونه خيرا.

خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله - عز وجل - ثم قال :

«يا أيها الناس ، إنى وجد هذا القلب لا يعبر عنه إلا اللسان ولعمرى - وإن لعمرى منى لحقًا - لوددت أنه ليس من الناس عبد ابتلى بسعة إلا نظر قطيعا من ماله ، يجعله فى الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل ، بدأت أنا بنفسى وأهل بيتى ، ثم كان الناس بعد». ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل : لولا سنة أحبيبتها ، أو بدعة أمتها ، لم أبال أن لا أبقى فى الدنيا إلا فواقا».

خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشد من الجهل ، ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت» ثم نزل.

خطبة عطاء بن أبى صيفى الثقفى

وروى المسعودى أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فقام «عطاء بن أبى صيفى» فقال : «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله ، ومنحت هبة الله وقد قضى «معاوية» نحبه فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة فاحتسب ، عند الله أعظم الرؤية ، واحمدته على أفضل العطية».

خطبة غيلان بن مسلمة الثقفى

وروى الجاحظ: أنه لما توفي «عبد الملك» ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل «غيلان بن مسلمة الثقفى» ، فسلم عليه ، ثم قال :

«يا أمير المؤمنين أصبحت وقد رزئت خير الآباء، وسميت خير الأسماء، وأعطيت أفضل الأشياء، فعظم الله لك على الرزية الصبر، وأعطاك في ذلك قوافل الأجر، وأعانك على حسن الولاية والشكر، ثم قضى عبد الملك بخير القضية، وأنزله بأشراف المنازل المرضية وأعانك من بعده على الرعية».

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير، ارتجت مكة بالبكاء فصعد المنبر فقال:
ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونزع فيها، وخلع طاعة الله، واستكنّ بحرم الله، ولو كان شئ مانعا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة.

خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثما، فحط اللثام عنه ثم قال: موج ليل التطم، وانجلي بضوء صبحه، أهل الحجاز، كيف رأيتموني؟ ألم أكشف ظلمة الجور، وطخية الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعطفة رحم ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار» ثم نزل وهو يقول:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمרת عن ساقها الحرب شمرا

خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي وقد تهيأ لغزو السند

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم وسار إلى السند سنة ٩٣ هـ خطب الناس فقال:
إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السُّغْدُ شاغرة برجلها، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون، وصنعوا به ما بلغكم

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَكْتَ فَاِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [سورة الفتح: آية ١٠].
فسيروا على بركة الله، فإنني أرجو أن يكون خوارزم والسُّغد كالنضير، وقريظة قال الله
تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [سورة الجن: آية ٢٨].

خطبة يوسف بن عمر الثقفي

قام خطيباً فقال:

اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه، وجامع مالاً لا يأكله ومانع عما
سوف يتركه، ولعله من باطل ما جمعه، من حق منعه أصابه حراماً، وأورثه عدواً فاحتمل
إصره، وباء بوزره وورد على ربه آسفاً لاهفاً، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران
المبين...



الكتابة

الكتابة الأدبية

استجد من أمور الدولة وشئونها في ذلك العصر ما استدعى وجود أنواع من الكتابة الأدبية، وقد شملت الكتابة ألوانا كثيرة منها المكاتبات بين الخلفاء وولاتهم وعمالهم، ومنها العهود والوصايا، ومنها الرسائل التي كان يتبادلها العلماء والوعاظ، فضلا عن الرسائل الإخوانية التي كان يتبادلها الأصدقاء ومن إليهم.

ومن أهم سمات الكتابة في ذلك العصر:

- انتقاء الألفاظ، والبعد عن الوحشى الغريب.
- التزام السمع في بعض الأحيان.
- الابتداء بحمد الله والثناء عليه، والختام بالسلام وتضمين بعض آيات القرآن أو الحديث أو الشعر.
- ترتيب الأفكار وتسلسل المعاني.

وقد عرف في هذا العصر جماعة من الكتاب منهم عبد الحميد الكاتب، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وقد جعل هذان إلى ولي عهد الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد^(١) وأمثالهما من الكتابة صنعة لها أصولها وقواعدها المقتنة.

نموذج للكتابة الأدبية:

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه معاتبا له :
أما بعد فقد عاقتني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، وذلك أنك ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتني بجفاء عن غير جريرة، فأطمعني أولك في إرخائك، وأياسني أخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك إطراحا، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

أولا: الكتابة:

كانت الكتابة قبل هذا العصر تؤدي بلغة أهل المِصر وهي اللغة الفارسية في فارس والعراق والرومية بالشام، واللغة القبطية في مصر واستمرت كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان

(١) انظر التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٢٦، وما بعدها.

حتى تم تعريب الدواوين وكان القائم على ديوان الشام سرجون بن منصور الرومي فحل محله سليمان بن سعد، وكان القائم على ديوان مصر أنتاش القبطي فحل محله ابن يربوع القراري بأمر عبدالله بن عبد الملك بن مروان وبهذا العمل العظيم في تلك الأقاليم الشاسعة طوّق عبد الملك بن مروان جيد العربية بمنة لا تمحى ومكرمة لا تزول، وإن قطرة واحدة إلى كتاب الدواوين في هذا العصر لتؤكد لنا قيمة الفتح، وعظمة ذلك في التعريب.

ثانياً: كتابة الرسائل:

لقد سارت الكتابة في العصر الأموي مسيرها أيام الرسول ﷺ، وخلفائه حتى انتهى العصر السفيناني دون أن يحدث فيها جديد إلا ما كان عليه من إنشاء معاوية بن أبي سفيان لديوان الخاتم ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مَخْتُوماً لا يَدْرِي حامله ما فيه، ولا يستطيع أن يغيره.

وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخري في كتابه «الآداب السلطانية»^(١) أن معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبيه وهو واليه على العراق بمائة ألف درهم، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك، ثم تبين حقيقة الأمر فاستعاد المائة، وأمر بوضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة، فأما كتابة الرسائل وهي التي تهمنا في هذا المضمار فقد كان لكل خليفة كاتب رسائل يتولى الخليفة بنفسه إملاء ما عليه، لذا كانت تفيض سحراً وبلاغة، ونصاعة بياض، وروعة وجمالاً، حيث إن الخلفاء أنفسهم كانوا أدباء وعلماء أخذوا بناصية الفصاحة وأمسكوا بتلابيب البلاغة لذا كتاباتهم غاية في الحسن والجمال والروعة.

ولم يظهر للكتاب شخصية فيما يصدرون إلا في عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك ابن مروان وكاتبه على الرسائل إذ كان ينوب عن الخليفة في كثير منها، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها وبهذا بدأت تظهر على يديه صناعة الكتابة الإنشائية ذات الصبغة الفنية، والنظم، والقيود ولكنها لم تؤت أكلها، ولم تعط ثمارها إلا على يد تلميذه، وزوج قرييته عبد الحميد بن يحيى المعروف بـ عبد الحميد الكاتب.

(١) راجع الآداب السلطانية للفخري.

أُطر الكتابة الإنشائية:

والكتابة الفنية الإنشائية مرت بطورين، الطور الأول من قيام الدولة إلى عهد الملك، وكانت الكتابة فيه تسير على نهجها في صدر الإسلام من السهولة والإيجاز والوضوح وعدم التكلف، وخلوها من عبارات التفخيم واحتذائها حذو القرآن، وكان أغلبها يملى ارتجالاً إملاءً تهم كأحاديثهم، ابنة السليقة، وربيبية الغريزة خالية من كل ما هو متكلف مصنّع، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، على طريق الخطباء مشى الكتاب، وذلك لأن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه فألفاظ الخطابة تشبه ألفاظ الكتابة في السهولة والعذوبة والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة ويمكن جعل الرسالة خطبة والخطبة رسالة في أيسر كلفة^(١) والطور الثاني من أيام الوليد إلى آخر حياة الدولة قيل إن الوليد أول من جود القراطيس، وجلل الخطوط، وفخم المكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف.

والكتابة في هذا الطور تدرجت في التألق والصنعة والإطناب وإشراق البيان، وحسن الديباجة حتى صارت صناعة فنية لها أصول وقواعد، وكان زمامها بأيدي الموالى الذين دخلوا في الإسلام واختلطوا بالعرب في الأقاليم الإسلامية الأولى كالشام والحجاز والعراق أو دخل عليهم الإسلام في ديارهم كآسيا الصغرى، ومصر وإيران، وخراسان فجمعوا بين اللسان العربى والأعجمى والثقافتين الإسلامية والأعجمية، وكان هذا الخليط أو المزيج أدبا طريفا تلمح فيه معالم النفس الفارسية أو اليونانية على رغم هذا الأسلوب العربى الطاغى كسالم مولى هشام بن عبد الملك، وأستاذ عبد الحميد الكاتب وأحد الواضعين لنظام الرسائل وصناعة الكتابة وكجيله بن سالم مولى هشام أيضا، وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة فيقال بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بآبن العميد نعم إن لسالم الفضل الأول بخاصة إنه كان يعرف اليونانية ونقل عنها إلى العربية شيئا من رسائل أرسطو إلى الإسكندر فساعده ذلك على ما عانى من التجديد وجعل الناس يدنونون له مجموعة كبيرة دون غيره قال ابن النديم عنها إنها تبلغ مائة ورقة ثم زاد فيها تلميذه عبد الحميد وأذاعها فضرب المثل ببلاغته واعتبر شيخ الكتاب ورئيسهم، ونسب إليه ابن النديم مجموعة رسائل قيل إنها تبلغ ألف ورقة ومما ساعد عبد الحميد

(١) الصناعيتين/ لأبى هلال العسكري.

فوق ما تقدم صحبتته لابن المقفع الذى كان يجيد الفارسية فجمع عبد الحميد إلى العربية ثقافة الفرس بسبب صحبتته «لابن المقفع».

وهو جدير بأن يكون شيخ الكتاب فقد استطاع أن يبتكر فى هذه الصناعة أمورا من أهمها:

١ - الإيجاز فى غير إخلال والإطناب فى غير إملال حتى قيل إنه كان يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى صفحات، ولقد روى أنه كان يكتب إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوة لبنى العباس كتابا يستميله فيه، وقال لمروان كتبت كتابا منى إذا قرأه بطل تدبيره فإن يك ذاك وإلا فالهلاك وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير فلما ورد الكتاب على أبى مسلم أمر بإحراقه ولم يقرأه وكتب على جذاذة منه:

محا السيف أسطار البلاغة عليك لئوثر الغاب من كل جانب

وليس فى هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب مع ما عرف من تفننه فى بلاغته، وكان لقدرته على الإيجاز والإطناب يتخير لكل منهما الموضع المناسب فيطنب فى الأخبار بالفتوح والحث على الجهاد والوعد والوعيد ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء. ومن إيجازه قوله موصيا بشخص حق موصل كتابى إليك كحقه إذ جعلك موضعا لأمله، ورأى أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله، وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى عبدا أسود فكتب إليه لو وجدت لونا شرا من السواد وعددا أقل من الواحد لأهديته.

٢ - أطال فى الفواتح والخواتيم بما يعد جديدا فى هذا العصر كالإتيان بكثير من التحييدات فى أساليب متنوعة، وصور مختلفة وكالبدء بسم الله، ثم إتباعها بالحمد لله فاصلاً بينهما بأما بعد وفى الخواتيم التى كانت مقصورة على السلام أطال أيضا.

٣ - قد أكثر من الرسائل الإخوانية ويراد بها تلك الرسائل التى تكون بين الناس فى عتاب أو شوق أو شكر أو استمناح أو تعزية أو تهنئة..... إلخ. وقد كانت قليلة ضئيلة ولكنها على يديه تحولت إلى رسائل أدبية متعددة الغرض متشعبة الفنون.

٤ - طرق موضوعات جديدة، وعالج فيها معانى لم تعهد للكاتب قبله كرسالته فى النهى عن الشطرنج فقد كان فيها قوى الحجة ناصع البرهان، ومثل رسالته التى أودعها نصائح إلى أبنائه الكتاب، والحق أن عبد الحميد قد تطور النثر على يديه تطورا واسعا

وطرق، موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد وأجرى قلمه فى وصف الخيل والسلاح، ولعل صلته بالثقافة الفارسية واليونانية وإلمامه بالثقافة العربية الواسعة كل ذلك جعله بحق شيخ الكتاب.

وبعد، فإن الناظر فى رسائل عبد الحميد يرى الرجل واسع التفكير مستقصيا للمعاني مرتبا لها متناولا لسهولة وصعوبها وجد الكتابة مقيدة فكك قيودها، ومتعثرة فأجراها على أذلاها ومنقطعة النفس فأطال من أنفاسها ومد من روحها كما حافظ على فضيلة السابقين من الجزالة والأحكام وزاد عليها الإسباغ وإطالة الذيل ولقد تميز عبد الحميد فى أسلوبه ومعانيه وألفاظه فالألفاظ منتخبة وليس فيها توعر ولا غريب وحشى وإنما فيها العذوبة والحلاوة، والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة وهو يعنى بالترادف فى أسلوبه ترادفا ينتهى به إلى ازدواج واضح مضيئا إلى ذلك جلى من طبقات وتصويرات تضى إلى أسلوبه روعة بيانية خلاصة، والكلام عن عبد الحميد لا ينتهى ومحل إيفائه هو الترجمة له لا ما نحن فيه.

نماذج الكتابة فى العصر الأموى:

١ - كتب «معاوية» إلى «على» يحاول أن يترضاه ويستميله ويأسف على ما حدث بينهما من حروب:

أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بناديك ما بلغت لم يجننها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نرد به ما مضى، ونصلح به ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمنى لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف.

وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز، ويسترق به حر والسلام. فرد عليه على بن أبى طالب بقوله: من على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان:

أما بعد، فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بناديك ما بلغت لم يجننها بعضنا على بعض، وأنا وإياك نلتمس منها غاية لم تبلغها بعد فأما طلبك منى الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وما استواؤنا فى الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك منى على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق

على الآخرة وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن وليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحر، والسلام.

٢ - ومن أوجز الرسائل ما كتبه عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز:

أما بعد فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج فكتب إليه عمر: «فهمت كتابك والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا».

الكتابة العلمية:

قلنا في الجزء الأول حينما تكلمنا عن النثر العلمي إن العصر الجاهلي والعصر الإسلامي لم يظفرا من النثر العملي بشيء لانعدام الكتابة، وغلبة الأمية، وتأصل البداوة في العصر الجاهلي وانشغال العرب بالفتح والجهاد ونشر الدين، وقمع الفتن الداخلية في العصر الإسلامي، فانقضى العهد الأول دون أن يدون كتاب إلا ما كان من أمر القرآن وظهور المصاحف على عهد عثمان.

ولكن لما دخل الأجانب ولهم عراقية ورسوخ في العلوم تطورت في هذا العصر الثقافات الدينية وقوامها القرآن الكريم وتفسيره وقراءته، والحديث الشريف وروايته، والفقه والتشريع والأدبية وقوامها الشعر والتاريخ والأخبار والأنساب، والعلمية الدخيلة وقوامها مسائل في الطب والكيمياء والفلك والنجوم والمذاهب الفلسفية وإليك كلمة عن كل مظهر من هذه المظاهر.

المظهر الديني:

قد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عنيت بتفسير الذكر ورواية الحديث النبوي، وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع، وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون، وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحار فيه من تفسير القرآن الكريم، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين أمثال مجاهد وعطاء، تفسير الطبري حمل تفسير ابن عباس ومن عاصره كابن مسعود وأبي بن كعب.

وما شك من أن هذه التفاسير قد دونت وإلا فما وصلت إلى الطبري وكذلك نال الحديث همة بعض الصحابة والتابعين فتردد بعضهم في تدوينه، غير أن منهم من خشى عليه

الضياع والنسيان ، فعمد إلى كتابته ونحن لا نصل إلى عهد عمر بن العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث.

المظهر الأدبي:

كان من أوائل ما عنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم. ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار، ومن أشهرهم دغفل بن حنظلة المتوفى سنة ٧٠ هـ وله مجالس عند معاوية دونت في كتاب اسمه التضايف والتناصر وبجانب ذلك نجد القبائل تعنى بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها. وتكاثر هذا التدوين في الكوفة مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد أن يكثرُوا من رواية الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام. وهناك أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يكتب ويدون من ذلك ما يرويه الجاحظ في الحيوان عن ذي الرمة أنه كان يقول لعيسى بن عمر اكتب شعري فالكتاب أحب إلي من الحفظ إلخ.



فَنُ النَّقَائِضِ

فن النقائض:

النقائض مفردتها نقيضة، والنقض إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، وفي الصحاح النقض هو نقض البناء والحبل والعهد. والمناقضة في القول أن يتكلم بما يتناقض معناه، والنقيضة في الشعر ما ينقض به قال الشاعر:

إني أرى الدهر ذا نقض وإمرار

أى ما أمر عاد عليه فنقضه، وكذلك المناقضة في الشعر ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول، والنقيضة اسم يجمع على النقائض، ولذلك قالوا: نقائض جرير والفرزدق، ونقيضك الذى يخالفك. والنقض: ما نقضت، والجمع أنقاض، ويقال انتقض الجرح بعد البرء، وانتقض الأمر بعد التثامه، وانتقض أمر الثغر بعد سده^(١).

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخِلَفُونَ﴾^(٢).

والنقيضة قصيدة يرويهما الشاعر على قصيدة لخصم فينقض معانيها عليه: يقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو، وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها.

يقول الأخطل من البحر البسيط على روى الرء المضمومة

خفوا القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غيرُ

فأجابه جرير من البحر نفسه وعلى الروى ذاته:

قل للديار: سقى أطلالك المطر قد هجت شوقا وماذا ينفع الذكرُ

وقد تختلف أحيانا حركة الروى فى النقائض كقول الفرزدق من البحر الكامل على اللام المضمومة:

إن الذى سمك السماء بنى بيتا دعائمه أعزُّ وأطولُ

(١) لسان العرب/ لابن منظور مادة نقض

(٢) سورة النحل آية رقم ٩٢.

فأجه جرير من البحر نفسه ولكن على اللام المكسورة:

لَمَن الديار كأنها لم تحلّ بين الكناس وبين طلع الأعزل

وربما اشترك في المناقضة بضعة شعراء فمن ذلك مثلاً قول الفرزدق يخاطب جريراً:

يا ابن المراغة والهجاء إذا التقت أعناقه وتماحك الخصمان

فقال جرير يرد على الفرزدق:

لَمَن الديار ببرقه الروحان إذ لا نبيع زماننا بزمان

وقال الأخطل يرد على جرير أيضاً:

بكر العواذل يبتدرن ملامتى والعالون فكلهم يلحاننى

والمختار فى النقائض أن تكون طويلاً ، وفيها يفتخر الشاعر بنفسه وبقومه ، وبفضائل نفسه كالشعر والكرم والشجاعة ثم بأحساب قومه كالحروب التى انتصروا فيها ، والعهود التى وفوا بها والمحاسن التى أتوها من الكرم والدفاع عن الأعراض والقيام بشأن القبيلة وما إلى ذلك.

نشوء النقائض:

كانت النقائض فى العصر الأموى استمراراً للهجاء القبلى فى الجاهلية وكان يبعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو أسرتين فينتصر شاعر لقومه أو لأحلاف قومه ، فيرد عليه شاعر من هؤلاء ، فيعود الأول إلى الرد عليه ، ثم يلتحم الهجاء ويستطير ، ولقد أذكى هذه النزعة فى الشعراء قيام الأحزاب وتقرب هؤلاء الشعراء إلى الخلفاء والأمراء بهجاء خصومهم تكسباً للمال.

قيمة النقائض:

كانت النقائض تمثل جانباً من العصور الأموى ، ذلك الجانب المضطرب بالتنازع على الخلافة ما يستنتج ذلك التنازع من الأحوال : لقد دلت على أن الحمية الجاهلية ظلت ذات أثر فى النفوس حتى بعد أن انتشر الإسلام ، ولكن أثر الإسلام وأثر الحياة الجديدة كانا بارزين ظاهرين يزدادان مع الأيام اتساعاً ونفوذاً إلى النفوس ، ويمكننا أن نرى لقيمة النقائض خمسة أوجه :

الْوَصَايَا

الوصايا

لما حضرت معاويةَ الوفاةَ، ويزيد غائب دعا معاويةَ مسلم بن عقبة المرِّي، والضحاك ابن قيس الفهري، فقال أبلغا عني يزيد وقولا له :

يا بني : إني قد كفيتك الشَّدَّ والترحال، ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء، أخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجاز، فإنهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعهده، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فإنَّ عزل عامل أهونُ عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا ندري علام أنت عليه منهم؟ ثم انظر أهل الشام، فاجعلهم الشعار دون الدثار، فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم، فإن أظفرك الله بهم، فاردد أهل الشام إلى بلادهم، ولا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم، وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به، فاصفح عنه، فإن له رحما ماسة وحقا عظيما، وقرابة من محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم، ليست له همة إلا في النساء واللهو، وأما ابن الزبير فإنه خبَّ ضَبَّ، فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا.

أو قال وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك، فظفرت به فقطعه إربا إربا، واحقن دماء قومك ما استطعت.

وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر وقال له حين ودعه :

أرسل حكيما ولا توصه، أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها،

تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى، إن كان بك غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفي الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

وصية عبد الملك بن مروان لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيره إلى أرض الروم، وقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالضارب الكيس الذي إن وجد ربها اتّجر، وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك.

وصيته للشعبي

روى المسعودي في مروج الذهب: ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تآقت نفسه إلى محادثة الرجال الأشراف في أخبار الناس، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشعبي، فلما حُمل إليه ونادمه، قال له: يا شعبي، لا تساعدني على ما قبح، ولا ترد عليّ الخطأ في مجلسي ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية ودع عنك (كيف أصبح الأمير وكيف أمسى) وكلمني بقدر ما أستطعمك واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول، وإذا سمعني أتحدث فلا يفوتك منه شيء وأرني فهمك من طرفك وسمعك، ولا تجهد نفسك في نظر صوابي ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي، فإن أسوأ الناس حالاً من استكذّ الملوك بالباطل، وإن أسوأ حالاً منهم من استخف بحقهم، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان، ويسقط حق الحرمة، فإن الصمت في موضعه وعند إصابته وفرصته.

وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاه مصر فقال:
ابسط بشرك، وألن كتفك، وآثر الرفق في الأمور، فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك،
فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه، لتكون
أنت الذى تأذن له أو ترده، إذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك، وتثبت
في قلوبهم محبتك، وإذا انتهى إليك شكل فاستظهر عليه بالمشاورة، فإنها تفتح مغاليق
الأمور وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدر منك
على ردها بعد إمضائها.

وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه فقال:
يا هذا أحنين الحمامة؟ إذا أنا مت فشمروا وترز، والبس جلد نمر، وضع سيفك على
عاتقك، فمن أبى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.
ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا، فقال: إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لقليل، وإن كنا
منك لفي غرور ثم أقبل على جميع ولده فقال:
أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية وجنة واقية فالتقوى خير زاد، وأفضل في
المعاد، وهى أحسن كهف، وليعطف الكبير منكم على الصغير وليعرف الصغير حق
الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور وإياكم والبغى والتحاسد، فبهما هلك
الملوك الماضون، وذوو العز المكين، يا بنى: أخوكم مسلمة نابكم الذى تفترون عنه،
ومجنكم الذى تستجنون به، اصدروا عن رأييه، وأكرموا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم هذا
الأمر، وكونوا أولادا أبراراً، وفى الحرب أحرارا، وللمعروف منارا، وعليكم السلام.

وصية يزيد بن معاوية لسالم بن زياد حين ولاه

لما ولي يزيد بن معاوية سالم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له:
إن أباك كفى أخاه (يعنى معاوية) عظيما، وقد استكفيتك صغيرا فلا تتكلن على عذر
منى لك، فقد اتكلت على كفاية منك، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك، فإن الظن

إذا أخلف منى فيك أخلف منك فيّ ، وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك ، فلا تريحن نفسك وكن لنفسك تكن لك ، واذكر في يومك أحاديث غذك تسعد إن شاء الله تعالى.

وصية عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده

قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده :
ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبیح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رؤهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشوقه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة النساء ورؤهم سير الحكماء ، واستزدنى بزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تتكل على عذر لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله تعالى.

وصية سعيد بن العاص لبنيه

لما ولد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع ، تفرس فيه النجابة ، وكان يفضل على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلا ، ولم يدع عمرا معهم وقال :
«يا بنى ، قد عرفت خبرة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرا ، لذو همة واعدة ، يسمو جدّه ، ويبعد صيته ، وتشدد شكيمته وإنى آمركم إن نزل بى من الموت ما لا محيص عنه ، أن تظاهروه ، وتوازره ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ عنكم اللئام ، ويلبسكم عزاً لا تنهجه الأيام فقالوا : جميعاً : إنك تؤثره علينا ، وتحابيه دوننا .

فقال : سأريكم ما ستره البغى عنكم ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان ، وراهق عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو فلما حضروا قال : يا بنى ألم تروا إلى أخيك عمرو؟ فإنه لا يزال فى مسألتى مالى ، فأخشى عليه لصغره ، وأحسبه بالشئ دون الشئ من مالى ، إلى أن أستثبت أن أمه باغيته على ذلك فزجرتها فلم تكف . وهذا مخرجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصمصامة كأن لا ولد لى غيره ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أمه من يكيد فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصامك إياه دوننا فقال :

يا بنى والله ما آثرته دونكم بشيء من مالى قط، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلافاً تساهلت فيه، لما أملتته من صلاح أمركم ثم قال لهم: ادخلوا المخدع فدخلوا المخدع، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره، فلما حضر قال:

يا بنى: إني عليك حَدِبٌ مشفق لصغر سنك وتعاسة إخوتك على مكانك منى، وإني لا آمن بغتة الأجل ولى كنز ادّخرته لك دون إخوتك، وها أنا مطلعك عليه فاكتم أمره. فقال: يا أبت، طال عُمرُك، وعلا أمرُك إني لأرجو أن يحسن الله عنك الدفاع، ويطيّل بك الإمتاع، فأما ما ذكرته من شأن الكنز فما يعجبني أن أقطع دون إخواتي أمراً وأزرع فى صدورهم غمراً.

فقال: انصرف يا بنى، فذاك أبوك، فوالله مالى من كنز، ولكنى أردت أن أبلو رأيك فى إخوتك وبين أبيك، فانطلق عمرو وخرج إخوته من المخدع فاعتذروا إلى أبيهم، وأعطوه موثقهم على اتباع مشورته.

نصيحة عمرو بن عتبة بن أبى سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبى سفيان رجلاً يشتم رجلاً وآخر يسمع منه، فقال للمستمع: نَرَه سمعك من استماع الناس، كما تنزه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، وإنما نظر إلى شرِّ ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك ولو رُدَّت كلمة جاهل فى فيه، لسعد رادّها كما شقى قائلها.

وصية زياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عبيد أنه قال: كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده، وأمر الناس بحفظها، وتدبر معانيها وهى:

إن الله - عز وجل - جعل لعباده عقولاً، عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ومسيئ بخذلان الله إياه، ولله النعمة على المحسن، والحجة على المسيئ، فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله، فيعطى ما عليه منها، ولا يتكثر بما ليس له منها فإن الدنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها، ولا بد من لقاء الله، فأحذركم الله الذى حذركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها فلا تقدرون على التوبة، وليس لكم منها أوبة وأنا أستخلف الله عليكم وأستخلفه منكم.

قال الجاحظ: وقد روى هذا الكلام عن الحجاج وزيد أحق به منه.

وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته

روى الطبرى قال:

لما كان المهلب بن أبي صفرة بزاغول من مَرَو الرُّوذ (من خراسان) أصابته الشوصة (قوم يقولون الشوكة) فدعا حبيبا ومن حضر من ولده، ودعا بسهام فحزمت، وقال أترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. قال أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم.

قال: فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثرى المال، وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلّة، تباذلوا وتواصلوا تحابُّوا، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم، إن بنى الأم يختلفون، فكيف بنى العلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتكن فعالكم أقل من قولكم، فإني أحب الرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه.

واتقوا الجواب، وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته، ويذل لسانه فيهلك. اعرّفوا لمن يغشاكم حقه، فكفى بغدّ الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل، وأحبُّوا العرب، واصطنعوا العرب، فإن الرجل من العرب تعدّه العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه، قيل أتى الأمر من وجهه، ثم ظفر فحمد، وإن لم يظفر بعد الأناة. قيل: ما فرط ولا ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السُّنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم، وقد استخلفت عليكم يزيد، وجعلت حبيبا على الجند، حتى يقوم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه.

وعهد إلى يزيد فكان من جملة ما قال له:

«يا بنى استعقل الحاجب، واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه، وكاتبه لسانه، وكان يقول لبنيه: يا بنى أحسن ثيابكم ما كان على غيركم ومن كلماته المأثورة قوله:»

الحياة خير من الموت، والثناء الحسن خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يُعطيه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فى غداً إذا مت».

وقوله: عجبت لمن يشتري العبيد بماله ولا يشتري الأحرار بأفضاله.

وصية «يزيد بن المهلب» لابنه مخلد قتل سنة ١٠٢هـ.

ولما ولي يزيد بن المهلب خراسان في عهد سليمان بن عبد الملك فتح جرجان، وطبرستان سنة ٩٨، وقد أوصى ابنه مخلدا حين استخلفه على جرجان فقال:
يا بني إنى قد استخلفتك على هذه البلاد، فانظر هذا الحى من اليمين فكن لهم كما قال الشاعر:

وإذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم فرش واصطنع عند الذين بهم ترمى

وانظر هذا الحى من ربعة، فإنهم شيعتك وأنصارك فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحى من تميم، فأمطرهم ولا تزه لهم ولا تدنهم فيطمعوا ولا تقصهم فينقطعوا عنك، وانظر هذا الحى من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ومناصفوهم المنابر فى الإسلام، ورضاهم منك البشر.

يا بنى: إن لأبيك صنائع فلا تفسدها فإنه كفى بالمرء نقصا أن يهدم ما بنى أبوه، وإياك والدماء فإنها لا بقية بعدها، وإياك وشم الأعراض فإن الحر لا عن عرضه عوض، وإياك وضرب الأبخار، فإنه عار باق، ووتر مطلوب، واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى، ولا تعزل إلا عن عجز وخيانة، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه، فإنك إنما تصطنع الرجال لفعلها، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم.

وإذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه، وليكن رسولك فيها بينى وبينك من يفقه عنى وعنك فإن كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع سره، وأستودعك الله، فإنه ينبغى للمودع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف وما خف من المنطق، وقل من الخطبة أحب إلى أبيك.

نصيحة عمر بن هبيرة لبعض أبنائه

وقال عمر بن هبيرة يؤدب بنيه:

لا تكونن أول مشير، وإياك والهوى والرأى الفطير وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشر على مستبد، ولا على وغد ولا على متلون، ولا على لجوج، وخف الله فى موافقة هوى المستشير، فإن التماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة.
وقال: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قلّ صديقه.

نصيحته لقومه

وقال بخراسان: يا بني تميم تحابوا تجتمع كلمتكم، وتبادلوا تعتدل أموركم، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

نصيحة عرهم العدو لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة قام إليه عرهم أخو بني العدوية فقال:

أصلح الله الأمير، إن هذا الحي من تميم تنط بقريش منهم رحم داسة ماسة، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها، وليس صاحبهم إلا المباكر المناكر، المحرب المجرب، الذي أرضعته الحرب بلبانها، وجرسه وضرسته وذلك أخو الأزد المهلب بن أبي صفرة والله إن غثك أحب إلينا من سمينه، ولكني أخاف عدوات الدهر وغدره، ليس المجرب كمن لا يعلم ولا الناصح المشفق كالغاش المتهم. قال له خالد: اسكت ما أنت وذا؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز وأحدوا امراته وفر عنها.

وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان يا بني أمية: ابدلوا فداكم، وكفوا آذاكم، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتهم فإن خير المال ما أفاد حمدا، أو نفى ذما، ولا يقولن أحدكم: ابدأ بمن تعول، فإنما الناس عيال الله، وقد تكفل الله بأرزاقهم، فمن وسع أخلف الله عليه ومن ضيق ضيق الله عليه.

وصية عبد الله بن شداد لابنه

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة، دعا ابنا له يقال له محمد، فقال: يا بني، إنى أرى داعى الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع ومن بقى فإليه ينزع، وإنى موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية فى السر والعلانية، فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد وكن كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
وما لابد أن يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

ثم قال: أى بنى، لا تزهدن فى معروف، فإن الدهر ذو صروف والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب، فكم من راغب أصبح مطلوباً ما لديه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان ير الهوان، وكن أى بنى كما قال أبو الأسود الدؤلى:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا جاء للعرف طالب
وإن امرأ لا يرتجى الخير عنده يكن هيئاً ثقلاً على من يصاحب
فلا تمنعنّ ذا حاجة جاء طالبا فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التو هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائب

ثم قال: أى بنى، كن جوادا بالمال فى موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق فى وجه البر، وإن أحمد بخل الحر الضن بمكتوم السر، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى:

أجود بمكنون التلاد وإننى بسرّك عمّن سألنى لثنين
إذا جاوز الاثنين سرٌّ فإنه نبث وتكثير الحديث قمين
وعندى له يوماً إذا ما اتّمننى مكان بسوداء الفؤاد مكين

ثم قال: أى بنى، وإن غلبت يوماً على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدّنى عيال، وكن أحسن ما تكون الظاهر حالاً، أقل ما تكون فى الباطن مالا، فإن الكريم من كرّمت طبيعته، وظهرت عند الإنقاذ نعمته، وكن كما قال ابن خذاف العبدى:

وجدت أبى أورثه أبوه خلاً قد تعدّ من المعالى
فأكرم ما تكون على نفسى إذا ما قل فى الأزمات مالى
فتحسن سيرتى وأصون عرضى ويجمل عند أهل الرأى حالى
وإن نلت الغنى لم أغل فيه ولم أخصص بجفوتى الموالى

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالمشاهد فإنك إن أمضيتها حيالها ، رجع العيب على من قالها وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفطن المتغافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما أنا مخلف من يرتجيني	وما من شيمتى شتم ابن عمى
سمعت فقلت مرى فانفذيني	وكلمة حاسد فى غيره جرم
ولم يعرق لها يوما جبينى	فعابوها على ولم تسؤنى
وليس إذا تغيب يأتلبنى	وذو اللونين يلقانى طليقا
محافضة على حسبى ودينى	سمعت بعبيه فصفحت عنه

ثم قال : أى بنى ، لا تؤاخ امرأ حتى تعاشره ، وتتفقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ورضيت الخبرة فواخه على إقالة العثرة ، والمواساة فى العسرة ، وكن كما قال المقنع الكندى :

وتوسم فعالهم وتفقد	أقبل الرجال إذا أردت إخاءهم
فبه اليدين قريب العين فاشدد	فإذا ظفرت بذى اللبابة والتقى
فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد	وإذا رأيت (ولا محالة) زلة

ثم قال : أى بنى : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط فإنه قد كان يقال : أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما وكن كما قال هدية بن الخشرم العذرى .

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا	فإنك راءٍ ما حييت وسماع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا	فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا	فإنك لا تدري متى أنت راجع

وعليك بصحبة الأخيار ، وصدق الحديث ، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار ، وكن كما قال الشاعر :

اصحب الأخيار وارغب فيهم	رُبَّ من صاحبتَه مثل الجرب
ودع الناس فلا تشتمهم	وإذا شاتمْتَ فاشتم ذا حسب
إن من شاتم وغدا كالذى	يشترى الصُّفر بأعيان الذهب
واصدق الناس إذا حدثهم	ودع الناس فمن شاء كذب

وصية أسماء بن خارجة لابنته

زوج أسماء بن خارجة الفزاري بنته هنداً من الحجاج بن يوسف فلما كانت ليلة أراد البناء بها، قال لها أسماء: يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل، وإياك وكثرة المعاتبة، فإنها قطيعة للود وإياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وكوني لزوجك أمه يكن لك عبداً واعلمي أنني القائل لأمك:

خذى العفو منى تستديمي مودتي ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة فإنك لا تدريين كيف المغيب
فإنى وجدت الحب فى الصدور والأذى إذا اجتمعنا لم يلبث الحب يذهب

وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكاتب

كتب «عبد الحميد بن يحيى الكاتب» رسالة إلى الكاتب يوصيهم فيها فقال:

«أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله - عز وجل - جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا فى الحقيقة سواء، وصرفهم فى صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم، لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه، من النعمة عليكم».

وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحموده، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب، وإذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه، الذى يثق به فى مهمات أموره، أن يكون حليماً فى موضع الحلم، فهيماً فى موضع الحكم، مقداماً فى موضع الإقدام، محجماً فى موضع الإحجام،

ومؤثرا للعفاف، والعدل، والإنصاف، كتوما للأسرار، وفيما عند الشدائد، عالما بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضع، والطوارق أماكنها، وقد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه أخذ منه بمقدار يكتفى به، يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه وفضل تجربته ما يَرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر قبل صدوره، فعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجهٍ هيئته وعادته، فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقها في الدين وابدءوا بعلم كتاب الله - عز وجل - والفرائض ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم، ولا تتبعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيها ودنيها وسفاسف الأمور ومحارها، فإنها مدلة للرقاب، مفسدة للكتّاب، ونزهوا صناعتم عن الدّئاءات واربأوا بأنفسكم عن السّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والصلف والعظمة فإنها عداة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله - عز وجل - في صناعتم، وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبيل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره، إن أقعد أحدكم الكبر عن مكبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه واستظفروا بفضل تجربته وقدم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحفظ منه على ولده وأخيه فإن عرضت في الشغل محمدا فلا يضيفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة في الشغل فليحملها هو من دونه، وليحذر السّقطّة والذلة، والممل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء وهو لكم أفسد منه لها. فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صاحبه الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره، ونصيحته، وكرتمان سره، وتبدير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه. فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء والشدّة والحرمان والمواساة، والإحسان والسراء والضراء، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله دعيا له أمر فليراقب

الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكما، وللأشراف مكرما، وللفيء موفرا، وللبلاد عامرا، وللرعية متألقا، وعن إذاثهم متخفيا وليكن في مجلسه متواضعا سليما، وفي سجلات خراجة واستقضاء حقوقه رفيقا، وإذا سحب أحدكم رجلا فليختبر خلأثقه، فإذا عرف حسننها وقبيحها، أعانه على ما يوافق من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة، وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمية إذا كان بصيرا بسياستها، التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحا لم يهجمها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها في طريقها فإن استمرت غطفها يسيراً فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس وعاملهم وخدمهم وداخلهم.

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ومداراته، وتقويم وده من سائس البهيمية التي لا تحير جوابا، ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله من صحبتهموه النوة والاستثقال والجفوة، ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى.

ولا يجاوزن الرجل منكم، في هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقه فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تحتل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما، ولا سيما الكتاب، وأرباب الآداب، ولأمر أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة.

وأعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنقاذ عمله ورؤيته، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي في منطقته وليوجز في ابتدائه وجوابه،

ولياًخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن إكثاره . وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضرب بيديه وعقله وأدبه فإنه إن ظن منكم ظان ، أو قال قائل : إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته ، إنما بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرض من بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الأبواب فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل شأنه ، من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه ، أو نظيره ، وصاحبه ، وعشيرته ، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتدلل لعزته والتحدث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل : من يلزم النصيحة يلزمه العمل ، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه ، بعد الذى فيه من ذكر الله - عز وجل - فلذلك جعلته آخره وتممته به ، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة ، بما يتولى به من سبق عمله بإسعاده ، وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده .

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فن المقال

مقال «عمرو بن العاص»

فحمد الله ، وصلى على رسوله ﷺ ثم ذكر عليا عليه السلام فلم يترك شيئا يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ثم بايعه مكرها ، وشارك في دم "عمر" وقتل "عثمان" ظلما ، وادعى من الخلافة ما ليس به ، ثم ذكر الفتنة يعيره بها ، وأضاف إليه مساوئ ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك وليس عندك عقل ذلك ولا لبه كيف ترى الله سبحانه وتعالى سلبك عقلك ، وتركك أحق قريش ويسخر منك ويهزأ وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا نخترار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا؟ فإن كنت ترى أنا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان.

مقال «الوليد بن عقبة- بن أبي معيط»

ثم تكلم «الوليد بن عقبة بن أبي معيط» فقال :
«يا بني هاشم : إنكم كنتم أحوال عثمان ، فنعم الولد كان لكم ، فعرف حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصهر كان لكم ، فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلما ، لا عذر له فكيف ترون الله طلب بدمه ، والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك».

مقال «عتبة بن أبي سفيان»

ثم تكلم «عتبة بن أبي سفيان» فقال :
«يا حسن : كان أبوك شر قريش لقريش لسفكه لدمائها وقطعه لأرحامها ، طويل السيف واللسان ، يقتل الحي ويعيب الميت ، وإنك ممن قتل «عثمان» ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها قادحا ، ولا في ميزانها راجحا ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم «عثمان» وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره وأقاد منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان».

مقال «المغيرة بن شعبة»

ثم تكلم «المغيرة بن شعبة»، فشتم عليا وقال: والله ما أعيبه في قضية بخون، ولا في حكم بميل، ولكنه قتل عثمان ثم سكتوا.

مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس، كانا صفيين دون الناس فحفظت الميت في الحي والحي في الميت، استعملك عليّ يا ابن عباس على البصرة، واستعمل أخاك عبيد الله على اليمن، واستعمل أخاك على المدينة، فلما كان من الأمر ما كان هنأتكم بما في أيديكم ولم أكشفكم عما وعت غرائركم، وقلت آخذ اليوم وأعطى غدا مثله، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم، لا يزال يبلغني عنكم ما تبرك له الإبل، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم، خذلتكم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وحاربتموني بصفين، ولعمرى لبنو تيم وعدى أعظم ذنوبا منا إليكم، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر، وسنوا فيكم هذه السنة فحتى متى أغضى الجفون على القذى، وأسحب الذبول على الأذى، وأقول لعل الله وعسى ما تقول يا بن عباس.

مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال:

«رحم الله أبانا وأباك، كانا صفيين متفاوضين، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضل لأبيك، وكان أبوك كذلك لأبي، ولكنه من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك، نصر أبي أباك في الجاهلية، وحقق دمه في الإسلام، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه، وقد استعملت أنت رجلاً لهواك لا لنفسك، فمنهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل، وبسر ابن أرتاة على اليمن فخان، وحبيب بن مرة على الحجاز فرد، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة فحصب، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك، ولو وضع أصغر ذنوبك إلينا على مائة حسنة لمحقتها، ولو وضع أدنى عندنا إليك على مائة سيئة لحسنها، ولما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه، وأما قتلنا

أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق وادعائك الباطل ، وأما إغراؤك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها» وسكت.

مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس فقال :

«لو وليتمونا ما آتيتم إلينا ما آتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل وإكرامكم على القليل ، وصبرى على ما صبرت عليه منكم ، إنى لا أريد أمرا إلا أظمأتم صدره ، ولا آتى معروفا إلا صغرتم إنى خطرته ، وأعطيكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذوها متكارهين عليها تقولون قد نقص الحق دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم ، ثم أكون أسر بإعطائها منه بأخذها ، والله لئن انخدعت لكم فى مالى وذللت لكم فى عرضى أرى انخداعى كرما ، وذلى حلما ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ولا نسألكم أموالكم لعلنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبغضنا إلينا أحبها إليكم أن نغفيكم».

مقال ابن عباس

«لو ولينا أحسننا المواساة ، وما ابتلينا بالأثرة ، ثم لم نغشم الحى ، ولم نشتم الميت ، فلستم أجود منا أكفا ولا أكرم أنفا ، ولا أصون لأعراض المروءة ، ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدنيا ، وأعطى فى الحق منكم فى الباطل ، وأعطى على التقوى منكم على الهوى ، والقسم بالسوية والعدل فى الرعية يأتیان على المنى والأمل ، ما أرضاكم منا بالكفاف ، فلو رضيتم منا لم ترض أنفسنا به لكم ، والكفاف رضا من لا حق له . فلا تبخلونا حتى تسألونا ، ولا تلفظونا حتى تذوقونا».

مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

«يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لممنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم علة ولا يوحد بابى دونكم مسألة ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ،

وانكم لترون أنكم أحق بما فى يدى منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم دون حقنا ، وقصر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم».

مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

«والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك، لله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين، ولنا فى كتاب الله حقان حق فى الغنيمة وحق فى الفىء - فالغنيمة: ما غلبنا عليه، والفىء ما اجتبيناه، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر، أكفاك أم أزيدك؟ قال: كفانى فإنك لا تعز ولا تشج».

مقال معاوية

وقال يوما معاوية وعنده ابن عباس: «إذا جاءت بنو هاشم بتقديمها وحديثها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياستها، وبنو أسد بن عبد العزى برفادتها ودياتها، وبنو عبد الدار بحجابتها ولوائها، وبنو مخزوم بأموالها وأفعالها، وبنو تميم بصديقها وجوادها، وبنو عدى بفاروقها ومتفكرها، وبنو سهم بآرائها ودهائها، وبنو جمح بشرفها وأنوفها، وبنو عامر بن لؤى بفارسها وقريعها، فمن ذا يجلى مضمارها ويجرى إلى غايتها، ما تقول يا بن عباس؟».

مقال ابن عباس

قال: «أقول ليس حى يفخر بأمر وإلى جنبهم من يشركهم إلا قريشا، فإنهم يفخرون بالنبوة التى لا يشاركون فيها، ولا يساوون بها ولا يدفعون عنها، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش إلا وقريش خير البرية، ولم يجعله فى بنى عبد المطلب إلا وهم خير بنى هاشم، ما نريد أن يفخر عليكم بما تفخرون به، إن بنا فتح الأمر وبنا يختم، ولك ملك معجل، ولنا ملك مؤجل فإن يكن ملككم قبل ملكنا فليس بعد ملكنا ملك، لأننا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين»

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نعي الحسن بن علي عليه السلام أظهر الفرح والسرور، حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك «عبد الله بن عباس» وكان بالشام يومئذ، فدخل على «معاوية» فلما جلس قال «معاوية» يا بن عباس هلك الحسن بن علي، ولم يظهر حزنا، فقال ابن عباس: نعم هلك إنا لله وإنا إليه راجعون، ترجيعا مكررا، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سد جسده حفرتك ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيرا منه، جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فجبر الله مصيبتته، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة.

فقال له معاوية: «كم كانت سنه؟ قال: مولده أشهر من أن تتعرف سنه: قال: أحسبه ترك أولادا صغارا؟ قال: كلنا كان صغيرا فكبر ولئن اختار الله لأبي محمد ما عنده وقبضه إلى رحمته، لقد أبقى الله أبا عبد الله (يعني الحسين) وفي مثله الخلف الصالح، ثم شهق وبكى، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاوية».

عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس: «ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين؟ قال: منعه والله من ذلك حاجز القدر وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني مكانه، لإعترضت له في مدراج نفسه، ناقضا لما أبرم، ومبرما لما نقض أسف إذا طار وأطير إذا أسف، ولكن مضى قدر وبقى أسف، ومع يومنا غد، والآخرة خير لأمرير المؤمنين من الأولى».

مقال مروان بن الحكم

فقال مروان بن الحكم: يا بن عباس إنك لتصرف أنيابك، وتورى نارك، كأنك ترجو الغلبة وتؤمل العافية، ولو لا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصر أنامله، فأوردكم منها ببعيدا صدره، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم، ولئن عفا عن جزائركم فقديما ما سنب إلى ذلك.

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس: «وإنك لتقول ذلك يا عدو الله، وطريد رسول الله ﷺ والمباح دمه، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه، وركوب أثباجه، أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره، وأما قولك لي: إنك لتصرف أنيايك، وتورى نارك، فسل معاوية وعمرا يخبراك ليلة الهرير^(١) كيف ثباتنا للمثلات، واسخفافنا بالمعضلات وصدق جلالنا عند المصاولة، وصبرنا على اللاواء والمطاولة ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة، ومباشرتنا بنحورنا حد الأسنة، هل خمننا عن كرائم تلك المواقف أم لم نبذل مهجنا للمتألف؟ وليس ذلك إذ ذاك فيها مقام محمود، ولا يوم مشهود ولا أثر معدود، وإنها شهدا ما لو شهدت لأقلقك، فأربع على ظلك، ولا تتعرض لما ليس لك، فإنك كالمغروز في صغد، لا يهبط برجل، ولا يرقى بيد».

مقال زياد

فقال زياد: «يا بن عباس: إنى لأعلم، ما منع حسنا وحسينا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سولت لهما أنفسهما وغرهما به من هو عند البأساء يسلمهما، وأيم الله لو وليتهما لأدأبا في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ونقل بمكانهما لبثهما».

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس: «إذن والله يقصر دونهما باعك، ويضيق بها ذراعك ولو رمت ذلك لوجدت دونهما فئة صدقا، صبرا على البلاء ولا يخيمون عن اللقاء، فلعركوك ووطئوك بمناسمهم، وأوجروك مشق رماحهم وشفار سيوفهم، ووخز أسنتهم، حتى تشهد بسوء ما أتيت وتتيبن ضياع الحزم فيما جنيت، فحذرا حذرا من سوء النية فإنها ترد الأمانة، وتكون سببا لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما، وسعيا في اختلافهما بعد ائتلافهما، حيث لا يضرهما إيساسك، ولا يغنى عنهما إيناسك».

(١) هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ وفيها حمل جيش على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح، وأوشك جيش على أن تكون له الغلبة.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال: عبد الرحمن بن أم الحكم
«لله در ابن ملجم! فقد بلغ الأمل، وأمن الوجل، وأحد الشفرة، وألان المهرة، وأدرك
الثار، ونفى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورقى الدرجة القصوى».

جواب ابن عباس

«أما والله لقد كرع كأس حتفه بيده، وعجل الله إلى النار بروحه ولو أبدى لأمير
المؤمنين صفحته، لخالطه الفحل القطم، والسيف الخدم ولا لعقه صايا، وسقاه سماما،
وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة فكلهم كان أشد منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرى بالسيف
هامهم، ورمّ لهم بدمائهم، وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم، أولئك
خَصَب جهنم هم لها واردون فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا، ولا غرو إن
خُتِل، ولا صمة إن قتل فإننا لكما قال دريد بن الصمة:

فإننا للحمُ السيف غير مُكرّه ونلحمه طورا وليس بذى نكر
يُغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

مقال المغيرة بن شعبه

فقال المغيرة بن شعبه:
«أما والله لقد أشرته على عليّ بالنصيحة، فأثر رأيه ومضى على غلوائه فكانت العاقبة
عليه لا له، وإلى لأحسب أن خلفه يقتدرون بمنهجه».

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

«كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأى، ومعاهد الحزم
وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه، وعَنف عليه، قال
سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿سورة المجادلة: آية ٢٢﴾. ولقد وقفك على ذكر مبين وآية متلوة، قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ [سورة الكهف: آية ٥١]. وهل كان يسوغ له أن يحكم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين، من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق به، في نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر إلا للتقية، ولات حين تقيية!! مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار، كالسيف المصلت في أمر الله مؤثرا لطاعة ربه، والتقوى على آراء أهل الدنيا».

مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية:

يا ابن عباس إنك لتنطق بلسان طلق، ينبىء عن مكنون قلب حرق فاطو على ما أنت عليه كشحا، فقد محا ضوء حقنا ظلمة باطلكم.

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

مهلا يزيد، فوالله ما صفت القلوب لكم منذ تكدرت بالعداوة عليكم ولا دنت بالمحبة إليكم، فقد نأت بالبغضاء عنكم، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تدل الأيام نستقض ما سد عنا، ونسترجع ما ابتز منا، كيلا بكيل، ووزنا بوزن، وإن تكن الأخرى، فكفى بالله وليا لنا، ووكيلا على المعتدين علينا.

مقال معاوية

فقال معاوية:

إن في نفسى منكم لحزازات يا بنى هاشم، وإنى لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفى العار، فإن دماءنا قبلكم، وظلامتنا فيكم.

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسدا مخدرة، وأفاعى مطرقة، لا يفتؤها كثرة السلاح، ولا تعضها نكاية الجراح، يضعون أسياهم على عواتقهم، يضربون قدما من ناوأهم، يهون عليهم نباح الكلاب وعواء الذئاب لا يفاتون بوتر، ولا يسبقون إلى كريم ذكر قد وطنوا على الموت أنفسهم، وسمت بهم إلى العليا همهم كما قالت الأزدية:

قوم إذا شهدوا الهياج فلا رب ينهئهم ولا زجر
وكانهم آساد غينة قد غرثت وبَل متونها القطر

فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرصك، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وندلوا دونك مهجمهم، حتى إذا ذاقوا الشفار وأيقنوا بحلول الدمار رفعوا المصاحف مستجيرين بها، وعائذين بعصمتها لكننت شلوا مطروحا بالعراء، تسفى عليك رياحها، ويتورك ذبابها، وما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمتك، ولا إزالتك عن معقود نيتك لكن الرحم التي تعطف عليك، والأواصر التي توجب صرف النصيحة إليك.

فقال معاوية:

والله درك يا ابن عباس، ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل، ورأى أصيل! وبالله لو لم يلد هاشم غيرك، لما نقص عددهم، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم، ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف.

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية، وتناول بنى هاشم، وذكر مشاهدة بصفين، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله عباس على «عمرو» فقال:

مقال ابن عباس

يا عمرو إنك بعث دينك من معاوية، وأعطيته ما بيدك، ومثلك ما بيد غيره، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك والذي أخذت منه دون الذي أعطيته، وكل راض بما أخذ

وأعطى، فلما صارت مصر فى يدك، كدرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك فى يدك ألقيتها إليه، وذكرت يومك مع أبى موسى فلا أراك فخرت إلا بالغدر، ولا مننت إلا بالفجور والغش، وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكتنا فيها حربك، ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها لطويل اللسان قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت، لك يدان يد لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسان غرور ووجهان: وجه موحش ووجه مؤنس ولعمرى إن من باع دينه بدنيا غيره لحرى أن يطول حزنه على ماباع واشترى، لك بيان وفيك خطل، ولك رأى وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد وأصغر عيب فيك أعظم عيب فى غيرك.

رد ابن العاص

فأجابه «عمرو بن العاص»: «والله ما فى قريش أثقل على مسألة ولا أمر جواباً منك، ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت، غير أنى لم أبع دينى من معاوية، ولكن بعث الله نفسى، ولم أنس نصيبى من الدنيا، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تعلم العوان الخمرة. وأما ما أتى إلى معاوية فى مصر فإن ذلك لم يغيرنى له، وأما خفة وطأتى عليكم بصفين، فلما استثقلتكم حياتى واستبطأتم وفاتى، وأما الجبن فقد علمت قريش أنى أول من يبارز، وآخر من ينزل وأما طول لسانى، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضي الله عنه: لسانى طويل فاحترس من شذاته، عليك وسيفى من لسانى أطول وأما وجهائى ولسانائى، فإنى ألقى كل ذى قدر بقدره وأرمى كل نابح بحجره، فمن عرف قدره كفانى نفسه، ومن جهل قدره كفيته نفسى، ولعمرى ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعنى ذلك عندك وأنشأ عمرو يقول:

بنى هاشم مالى أراكم كأنكم	بى اليوم جهال؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنى جسور على الوغى	سريع إلى الداعى إذا كثر القتل
وأول من يدعونزال طبيعة	جبلت عليها والطباع هو الجبل
وأنى فضلت الأمر بعد اشتباهه	بدومة إذ أعيا على الحكم الفصل
وأنى لا أعيا بأمر أريده	وأنى إذا هجت بكاركم فحل

ابن عباس وابن الزبير فى مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة سرير آخر أصغر من سريريه، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك، فأذن مروان يوماً للناس، وإذا سرير آخر قد أحدث تجاه سرير مروان فأقبل ابن عباس فجلس على سريريه وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث وسكت مروان والقوم، فإذا يد ابن الزبير تتحرك، فعلم أنه يريد أن ينطق ثم نطق فقال:

مقال ابن الزبير

إن ناسا يزعمون الأمر لهم أن بيعة أبى بكر كانت غلطا وغلطة ألا إن شأن أبى بكر أعظم من أن يقال فيه هذا! ويزعمون أنه لو لا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب محمد ﷺ أحد أثبت إيماننا، ولا أعظم سابقة ولا أعظم من أبى بكر، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله فأين هم حين عقد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال، ثم ألقى عمر حظهم فى حظوظ/ وجدهم فى جدود، فقسمت تلك الخطوط فأخر الله سهمهم، وأدحض جدهم، وولى الأمر عليهم من كان أحق به منهم فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجا من الفرية، فأصابوا منه غرة فقتلوه، ثم قتلهم الله به كل قتلة وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب.

مقال ابن عباس

فقال ابن عباس على رسلك أيها القائل فى أبى بكر وعمر والخلافة أما والله ما نالا ولا نال أحد منها شيئا إلا وصاحبنا خير ممن نالا، وما أنكرنا تقدم من تقدم لعيب عبناه عليه، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلا وفوق الأهل، ولولا أنك تذكر حظ غيرك وشرف ودع تيمما لتيمم، وعديا لعدى وأمية لأمية، ولو كلمنى تيمى أو عدوى أو أموى، لكلمته وأخبرته خبر حار عن حاضر، لا خبر غائب عن غائب، ولكن ما أنت وما ليس عليك فإن يكن فى أسد بن عبد العزى شىء فهو لك، أما والله لنحن أقرب بك عهدا وأبيض بك يدا، وأوفر عندك نعمة، عمن أمسيت تظن أنك تصول به علينا وما أخلق ثوب صفية بعد، والله المستعان على ما تصفون.

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيس بن سعد بن عبادة، بعد وفاة علي ووقوع الصلح، في جماعة من الأنصار على معاوية فقال لهم «معاوية».

مقال معاوية

يا معشر الأنصار بم تطلبون ما قلبي؟ فوالله لقد كنتم قليلاً معي، كثيراً مع علي، ولقد قللتكم حدى يوم «صفين» حتى أريت المنيا تلظى في أسننكم وهجوتمنى في أسلافي بأشد من وقع الأسنة، حتى إذا قام الله منا ما حاولتم ميله، قلتم ارع فينا وصية رسول الله ﷺ هيهات بأبى الحقير الغدرة.

رد قيس بن سعد

فقال قيس: نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله، لا بما نمت به إليك من الأحزاب، وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك، وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله، ويثبت حقه، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا وأما فلنا حدك يوم صفين فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة وأما وصية رسول الله ﷺ - بنا، فمن آمن به رعاها بعده، وأما قولك بأبى الحقير الغدرة فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية فقال معاوية يموه: «ارفعوا حوائجكم» «مولى القوم منهم» فأنا مولى رسول الله ﷺ وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولأء وأحسن فعلا، قال ابن الزبير: إني لست أجيب هذا، فهات ما عندك.

مقال ذكوان

«يا ابن الزبير»: «إن مولاي ما يمنعه من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان، رابط الجنان، فإن نطق بعلم، وإن صمت صمت بحلم غير أنه كف الكلام، وسبق إلى السنم، فأقرت بفضل الكرام وأنا الذى أقول:

فيم الكلام لسابق فى غاية	والناس بين مقصر ومبلد
إن الذى يجرى ليدرك شاؤه	يمنى لغير مؤد ومسد
بل كيف يدرك نور بدر ساطع	خير الأنام وفرع آل محمد

فقال معاوية: «صدق قولك يا ذكوان، أكثر الله في موالى الكرام مثلك، فقال ابن الزبير: إن عبد الله سكت وتكلم مولاه ولو تكلم لأجبناه، أو لكففنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جواب لهذا العبد، قال ذكوان: هذا العبد خير منك. قال رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم» فأنا مولى رسول الله ﷺ وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولأءاً، وأحسن فعلاً، قال ابن الزبير: إني لست أجيب هذا، فهات ما عندك.

مقال معاوية

فقال معاوية:

قاتلك الله يا ابن الزبير! ما أعياك وأبغاك! أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبى عبد الله! إنك أنت المتعدى لطورك الذى لا تعرف قدرك، فقس شبرك نبتك ثم تعرف كيف تقع بين عرانيين، بنى عبد مناف، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس، لقطعنك بأمواجها، ثم لتوهين بك فى أجاجها، فما بقاؤك فى البحور إذا غمرتك وفى الأمواج إذا بهرتك، هنالك تعرف نفسك، وتندم على ما كان من جرأتك، وتمشى ما أصبحت إليه من أمان، وقد حيل بين العير والتدوان، فأطرق ابن الزبير ملياً، ثم رفع رأسه، فالتفت إليه من حوله، ثم قال:

مقال ابن الزبير

أسألكم بالله: أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله ﷺ وأن أباه أبا سفيان، حارب رسول الله ﷺ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر، ورأس الكفر وعمتى خديجة ذات الخطر والحسب وعمته أم جميل حمالة الحطب؟ وجدتى صفية وجدته حمامة؟ وزوج عمتى خير ولد آدم ﷺ وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، سيصلى نارا ذات لهب وخالتى عائشة أم المؤمنين وخالته أشقى الأشقياء وأنا عبد الله، وهو معاوية.

مقال معاوية

فقال له معاوية:

ويحك يا بن الزبير! كيف تصف نفسك بما وصفتها، والله مالك فى القديم من رئاسة، ولا فى الحديث من سياسة، ولقد قدناك وسوناك قديماً وحديثاً، لا تستطيع لذلك إنكاراً،

ولا عنه فرارا، وهؤلاء الحضور ليعلمون أن قريشا قد اجتمعت يوم الفجار على رئاسة حرب ابن أمية وأن أباك وأسرتك تحت رايته، راضون بإمارته غير منكرين لفضله ولا طامعين في عزله، إن أمر أطاعوا، وإن قال أنصتوا فأنزل فينا القيادة، وعز الولاية، حتى بعث الله عز وجل محمدا ﷺ فانتخبه من خير خلقه، من أسرتي لا أسرتك، وبنى أبى لا بنى أبيك، فجحدته قريش أشد الجحود، وأنكرته أشد الإنكار وجاهدته أشد الجهاد، إلا من عصم الله من قريش، فما ساد قريشا وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب، فكانت الفتتان تلتقيان ورئيس الهدى منا، ورئيس الضلالة منا، فمهديكم تحت مهدينا وضالكم تحت راية ضالنا، فنحن الأرباب، وأنتم الأذئاب، حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بقله من عظيم شركه، وعصمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهلية عظيما شأنه، في الإسلام معروفا مكانه، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يعط أحد من آبائك، وإن منادى رسول الله ﷺ نادى: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، وكانت داره حرما، لا دارك ولا دار أبيك، وأما هند فكانت امرأة من قريش في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخبر، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُمى صديقا، لا بتصديق عبد العزى، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه، فلو بارزت إليه أنت وأبوك ما بارزوك ولا رأوكم لهم أكفاء، كما قد طلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفأهم، من بنى أبيهم، ففضى الله منايهم بأيديهم، فنحن قتلنا، ونحن قتلنا وما أنت وذاك؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شرفت وسميت أم المؤمنين وخالتك عائشة مثل ذلك، وأما صفية فهي أدنتك من الظل ولولا هي لكنت ضاحيا، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أبيك سيد الشهداء، فكَذلك كانوا رحمهم الله، وفخرهم وإرثهم لى دونك ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم، وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية، فقد علمت قريش أينما أجود فى الإزم، وأحزم فى القدم وأمنع للحرم، لا والله ما أراك منتهيا حتى تروم من بنى عبد مناف ما رام أبوك فقد طالعهم الدخول، وقدم إليهم الخيول وخذعتم أم المؤمنين ولم تراقبوا رسول الله ﷺ إذ مددتم على نساكم السجوف وأبرزتم زوجته للحتوف، ومقارعة السيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربا، فلم ينجح ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكلة طحن الحصيد بأيدي العبيد، وأما أنت فأفلت بعد

أن خمشتك براثينه ونالتك مخالبيه، وأيم الله لقومك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصحبن منها صباح أبيك بوادي السباع، وما كان أبوك المرهن حدّه، ولكنه كما قال الشاعر:

تناول سرجان فريسة ضيعم فقضغه بالكف منه وحطما

مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين إن للشاهد غير حكم الغائب، وقد حرك زياد، وله مواطن معدودة بخير، لا يفسدها التظنى، ولا تغييرها التهم، وأهلوه أهلك التحقوا بك وتوسطوا شأنك فسافرت به الكيان، وسمعت به أهل البلدان حتى اعتقده الجاهل، وشك فيه العالم، فلا تتحجريا أمير المؤمنين ما قد اتسع، وكثرت فيه الشهادات، وأعانك عليه قوم آخرون.

فانحرف معاوية: إلى من معه، فقال: هذا وقذ نفسه ببيعته وطعن في إمرته، يعلم ذلك كما أعلم، يا للرجال من آل أبي سفيان لقد حكموا وبذهم «يزيد» وحده، ثم نظر إلى عبد الله، فقال: «يا بن أخي، إنى لأعرف بك من أبيك، وكأنى بك في غمرة لا يخطوها السابح فالزم ابن عمك فإن لما قال حقا فخرجوا ولزم عبيد الله «يزيد» مجلسه ويطأ عقبة أياما حتى رمى به معاوية إلى البصرة واليا عليها.

ائتمار الخوارج

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فزعوا إلى ثلاثة نفر منهم: المستورد بن علفة التيمي، وحيان بن ظبيان السلمى، ومعاذ بن جوين بن حصين الطائى، فاجتمعوا في منزل حيان ابن ظبيان، فتشاوروا فيمن عليهم فقال لهم المستورد:

مقال المستورد بن علفة

يأيها المسلمون والمؤمنون، أراكم الله ما تحبون، وعزل عنكم ما تكرهون، ولوا عليكم من أحببتهم فوالذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ما أبالى من كان المولى على منكم، وما شرف الدنيا نريد، وما إلى البقاء فيها من سبيل وما نريد إلا الخلود فى دار الخلود.

مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان: أما أنا فلا حاجة لى فيها، وأنا بك وبكل امرئ من إخوانى راض، فانظروا من شئتم منكم فسموه فأنا أول من يبايعه.

مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين: إذا قلتما أنتما هذا، وأنتما سيدا المسلمين وذوا أنسابهم فى صلاحكما ودينكما وقدركما، فمن يرأس المسلمين؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر، وإنما ينبغى أن يلى على المسلمين - إذا كانوا سواء فى الفضل - أبصرهم بالحرب، وأفقههم فى الدين وأشدهم اضطلاعا بما حمل، وأنتما بحمد الله ممن يرى لهذا الأمر فليتوله أحدكما. قالوا: فتوله أنت: فقد رضيناك فأنت - والحمد لله - الكامل فى دينك ورأيك فقال لهما: أنتما أسن منى، فليتوله أحدكما فقال حينئذ جماعة من حر: فقد رضينا بكم أيها الثلاثة فولوا أيكم أحببتهم، وكانت خاتمة ذلك النقاش أن بايعوا المستورد واتعدوا أن يتجهزوا وتيسروا ويستعدوا، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ.

مقاتل عتريس بن عرقوب

فقال لهم «عتريس بن عرقوب»: ولكن لا أرى رأى جماعتكم فانظروا فى رأى لكم، إنى لا إخالكم تجهلون معرفتى بالحرب، وتجربتى للأمور، فقالوا له: أجل، أنت كما ذكرت فما رأيك؟ قال: ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمصر، إنكم قليل فى كثير والله ما تريدون أن تحرزوهم أنفسكم، وتقروهم أعينهم بقتلكم، وليس هكذا تكون المكايدة إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم، فكيدوا عدوكم ما يضرهم، قالوا: فما رأى؟ قال تسيرون إلى الكورة التى أشار بنزولها «معاذ بن جوين» يعنى «حلوان» أو تسيرون بنا إلى عين التمر، فنقيم بها، فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كل جانب وأوب.

رد حيان

فقال له حيان: إنك والله لو سرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو هذين الوجهين ما اطمأننتم به حتى يحلق بكم خيول أهل المصر فأنى تشفون أنفسكم؟ فوالله ما عدتكم

بالكثيرة، التي ينبغي أن تطمعوا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين فاخرجوا بجانب من مصركم هذا فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ولا تربصوا ولا تنتظروا فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة قالوا: أما إذا كان لابد لنا فإننا لن نخالفك فاخرج حيث أحببت.

مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة سنة ٦٤ هـ وسار إليه مسلم بن عقبة المري في جيش من أهل الشام بعد أن غزا المدينة وكان منه في وقعة الحرة ما كان، فقال لهم نافع بن الأزرق: اخرجوا بنا نأت البيت، ونلق هذا الرجل، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير فسر بمقدمهم ونبأهم أنه على رأيهم وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام عن مكة.

ثم إن القوم لقي بعضهم بعضا فقالوا: إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه، ينادى بالشارت عثمان وعلى وكفر أباه وطلحة بايعناه وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يجدى علينا.

فدخلوا على ابن الزبير وهو متبذل، وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا: إنا جنناك لتخبرنا رأيك فإن كنت على الصواب بايعناك، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق ما تقول في الشيخين؟ قال: خيرا قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى، وآوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين، وفي الذي بعده، الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم، وفي أبيك وصاحبه، وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى في السنين الست التي أحلت دمه، ونقضت لأحكامه، وأفسدت إمامته، خذلك الله وانتصر منا بأيدينا، فقال

ابن الزبير: إن الله أمر (وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين، وأعتى العتاة بأرأف من هذا القول، فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ٤٣) فَقُولَا لَهُ: قَوْلًا لَّنَا لَعَلَّهُ يَذَّكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿[سورة طه: الآيات ٤٣ - ٤٤]﴾. وقال رسول الله ﷺ: لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول، والمقيم على الشرك والجاداد في المحاربة، والمنبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة، والمحارب بعدها، وكفى بالشرك ذنباً! وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا: أتبرأ من الظالمين؟ فإن كانا منهم دخلا فى غمار المسلمين وإن يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وصاحبه، وأنتم تعلمون أن الله عز وجل - قال للمؤمن فى أبيه: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان: آية ١٥]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: آية ٨٣].

وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده، وليس يقنعكم إلا التوقف والتصريح ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج، وأوضح لمنهاج الحق، وأولى أن يعرف كل صاحبه من عدوه، فروحوا إلى من عشيتكم من هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى.

فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه، فلما رأى ذلك تحيره، قال: هذا خروج منابذ لكم فجلس على رقيع من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ثم وصلهن بالسنين التى أنكروا سيرته فيها، تجعلها كالماضية، وخبر أنه آوى الحكم بن أبى العاص بإذن رسول الله ﷺ وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعتبوه من أمور وكان له أن يفعلها أولاً مصيباً ثم أعتبهم بعد ذلك محسناً وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه، بعد أن ضمن لهم العتبي، ولم يأمر به، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله، ومكانه من الإمامة وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه، وعثمان الرجل الذى لزمته يمين، ولو حلف عليها لحلف على حق، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله ﷺ: من حلف بالله فليصدق، وأنا وليه وعدو عدوه، وأبى وصاحبه صاحباً رسول الله، ورسول الله ﷺ يقول عن الله عز وجل يوم أحد، لما قطعت إصبع طلحة: سبقته إلى الجنة

وقال: أوجب طلحة وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم مكة أو جله لطلحة والزبير حوارى رسول الله ﷺ وصفوته، وقد ذكر أنه فى الجنة، فقال جلّ وعز: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» وما أخبرنا بعد أنه سخط عليهم، فإن يكن ما سعى فيه حقاً، فأهل ذلك هم، وإن يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها، وفيما وفقهم من السابقة مع نبيهم ﷺ ومهما ذكرتموها فقد بدأت بأمكم عائشة رضى الله عنها فإن أبى آب أن تكون له ما نبذ اسم الإيمان عنه، وقد قال الله جل ذكره وقوله الحق: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه.

كلامه عمر بن عبد العزيز فى مرضه الذى مات فيه

ودخل عليه مسلمة بن عبد الملك فى المرضة التى مات فيها، فقال له: يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة ولا بد من شىء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك، لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله.

فقال «عمر» أجلسونى فأجلسوه، فقال:

الحمد لله، أبالله تخوفنى يا مسلمة! أما ما ذكرت من أنى فطمت أفواه ولدى من هذا المال، وتركتهم عالة، فإنى لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطيهم حقاً هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك، أو إلى نظرائك من أهل بيتى، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين وإنما بنو «عمر» أحد رجلين رجل اتقى الله، فجعل الله له من أمره يسراً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه، ادعوا لى بنى فدعوه، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم أيا بنى: إنى قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تكرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بنى ميلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا، وبين أن يدخل أبوك النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً فى النار، قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم قالوا: فما احتاج من أولاد عمر ولا افتقر.

مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شاذب الخارجي واسمه «بسطام» من بني يشكر فكتب إليه عمر ابن عبد العزيز: بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله، ولست أولى بذلك مني فهل إلى أنظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك، فكتب بسطام إلى عمر: قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيا اسمه «عاصم» ورجلا من بني يشكر فقدا على عمر بخاصرة فأخبر بمكانهما فقال: فتشوهما لا يكن معهما حديد، وأدخلوهما، فلما دخلا قالا: السلام عليك ثم جلسا فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا؟ وما نقمتم علينا؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر، أعن رضا من الناس ومشورة، أم ابتزرتهم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها، وعهد إلى رجل كان قبلي فقامت ولم ينكره على أحد، ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف، من كان الناس فاتركوني ذلك الرجل، فإن خالقت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم فقالا: بيننا وبينك أمر، إن أنت أعقبتناه فنحن منك وأنت منا، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك، فقال عمر: وما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك، وسميتها مظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت إنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق، فتكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني قد علمت أنكم لم تخرجوا في خروجكم هذا طلب دنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا، وقال إبراهيم، فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم، وقال الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْسَدَةٌ﴾ [سورة الأنعام: آية ٩٠]. وقد سميت أعمالهم، ظلما، وكفى بذلك ذما ونقصا، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها، فإن قلت إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون؟ قال: أذكر متى لعنته قال: أفيسمعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون؟ قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا، لأن رسوله الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقربيه وبشرائه قبل منه، فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد، فقال الخارجي:

إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر: فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم، على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء، قال عاصم: فأبرأ ممن خالف عملك، ورد أحكامهم قال عمر: أخبراني عن أبي بكر وعمر: أليس من أسلافكما وممن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالوا اللهم نعم. قال فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب، قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال، وسبى الذراري؟ قالوا نعم. قال: فهل برئ عمر من أبي بكر، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية؟ قالوا: لا قال: فهل برئ عمر من أبي بكر، أو تبرءون أنتم من أحد منهما؟ قالوا: لا قال: فأخبراني عن أهل النهروان أليسوا من صالحى أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالوا: بلى قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما. ولم يخيفوا آمنا، ولم يأخذوا مالا؟ قال: نعم: قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك، استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت: صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه وقتلوا جاريته؟ ثم صحبوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقيون الصبيان في قدور الإقط وهي تفور قالوا: قد كان ذلك. قال: فهل أبرئ أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالوا: لا. قال: فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالوا: لا قال: أرأيتم الدين واحدا أم اثنين؟ قالوا: بل واحدا قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قال: لا قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى أحدهما صاحبه، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة، وتولى بعضهم بعضا، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء، في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟ ويحكم! إنكم جهال.

أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويختف عندكم من أمن عنده، قالوا: ما نحن كذلك قال عمر: بل سوف تقرون بذلك الآن هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى خلع الأوثان، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فمن قبل ذلك حقن دمه، وأحرز مال، ووجبت حرمة وكانت له أسوة المسلمين؟ قالوا: نعم قال: أفليستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فتستحلون

دمه وماله، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه؟ فقال اليشكرى: رأيت رجلا ولى قوما وأموالهم فعدل فيها، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون، أترأه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل؟ أو تراه قد سلم؟ قال عمر: لا قال: أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولاه غيرى والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى. قال: أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا؟ فبكى عمر وقال: أنظرانى ثلاثا فخرجا من عنده ثم عادا إليه. فقال عاصم: أشهد أنك على حق، فقال عمر لليشكرى ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما وصفت ولكن لا أفتان على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجته، فأما عاصم فأقام عند عمر، فأمر له عمر بالعطاء فتوفى بعد خمسة عشر يوما فكان عمر يقول: أهلكنى أمر يزيد وخصمت فيه، فاستغفر الله، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد وضعوا على عمر من سقاه سما، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا، حتى مرض ومات.

تأبينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك، وسوى عليه قبره بالأرض وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون إحداهما عند رأسه، والأخرى عند رجليه، استوى عمر قائما وأحاط به الناس، فقال: رحمك الله يا بنى، فقد كنت برا بأبيك، والله ما زلت مذ وهبك الله لى بك مسرورا، ولا والله ما كنت قط أشد سرورا بك، ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه، فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عملك، وتجاوز عن سيئاتك، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير، من شاهد أو غائب رضىنا بقضاء الله، وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين.

تأديب معاوية لجلسائه

أذن معاوية للأحنف بن قيس - وقد وافى معاوية محمد بن الأشعث - فقدمه عليه، فوجد من ذلك محمد بن الأشعث وأذن له فدخل فجلس بين معاوية والأحنف، فقال معاوية: إنا والله ما أذنا له قبلك، إلا ليجلس إلينا دونك، وما رأيت أحدا يرفع نفسه فوق

قدرها، إلا من ذلة يجدها، وقد فعلت فعل من أحس من نفسه ذلا وضعة وإنما كما نملك أموركم نملك تأديبكم، فأريدوا منا ما نريده منكم، فإنه أبقي لكم وإلا قصرناكم كرها، فكان أشد عليكم وأعنف بكم.

كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثنيتا معاوية لف وجهه بعمامة ثم خرج إلى الناس فقال: لئن ابتليت لقد ابتلى الصالحون قبلي، وإنني لأرجو أن أكون منهم، ولئن عوقبت لقد عوقب قبلي وما آمن أن أكون منهم. ولئن سقط عضوان مني لما بقي أكثر، ولو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيار تبارك وتعالى، فرحم الله عبدا دعا بالعافية، فوالله كان عتب على خاصتكم لقد كنت حدبا على عامتكم.

تقريع عبد الملك بن مروان لأحد أعماله

وروى الجاحظ قال:

قال أبو الحسن: كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة، كثير التعاهد لولاته، فبلغه أن عاملا من عماله قبل هدية فأمر بإشخاصه إليه، فلما دخل إليه قال: أقبلت هدية منذ وليتكَ؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة وخراجكم موفور ورعيتك على أفضل حال قال: أجب فيما سألتك عنه أقبلت هدية منذ وليتكَ؟ قال: نعم، قال: لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئييم، ولئن أنلت مهديك لا من مالك، أو استكفيت ما لم يكن يستكفاه، إنك لجائر خائن ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدي إليك من مالك وقبلت ما اتهمك به عند من استكفاك، وبسط لسان عائبك، وأطمع فيك أهل عملك إنك لجاهل، وما فيمن أتلى أمرا لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل، مصطنع تحياه عن عمله.

كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وخرجت خارجة بخراسان، فقيل لقتيبة بن مسلم: لو وجهت إليهم وكيع بن أبي سود قال: وكان وكيع رجلا عظيم الكبر في أنفه خنزوانة، وفي رأسه نُعرة - وإنما أنفه في أسلوب ومن عظم كبير، اشتد عجبه، ومن أعجب برأيه لم يشاور كфия ولم يؤامر نصيحا، ومن تغرد بالنظر لم يكمل له الصواب، ومن تبجح بالانفراد، وفخر بالاستبداد، كان من

الصواب بعيدا، ومن الخذلان قريبا والخطأ مع الجماعة، خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ، والفرقة لا تصيب، ومن تكبر على عدوه حقره وإذا حقره تهاون بأمره، ومن تهاون بخصمه، ووثق بفضل قوته قل احتراسه، ومن قل احتراسه كثر عثاره، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب، إلا كان منكوبا، فلا والله حتى يكون عدوه عنده وخصمه فيما تغلب عليه أسمع من فرس، وأبصر من عقاب، وأهدى من قطاة وأحذر من عقعق، وأشد إقداما من الأسد، وأوثب من الفهد، وأحقد من جمل وأروغ من ثعلب، وأغدر من ذئب وأسخى من لاقطة وأشح من صبي، وأجمع من ذرة وأحرس من كلب، وأصبر من خبيب فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة، وتتحفظ على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب.

قوله فى مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية، ويزيد بين يديه، وهو ينظر إليه إعجابا به فقال: يا أبا بحر ما تقول فى الولد؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أمير المؤمنين هم عماد ظهورنا، وتمر قلوبنا وقرة أعيننا بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا، فكن لهم أرضا ذليلة وسماء ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم لا تمنعهم رعدك، فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطنوا وفاتك فقال: لله درك يا أبا بحر! هم كما وصفت.

شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير يكلمه فى قوم حبسهم، فقال: أصلح الله الأمير، إن كانوا حبسوا فى باطل، فالحق يخرجهم وإن كانوا حبسوا فى حق فالعفو يسعهم فخلاهم.

نصيحته لقومه

وقال بخراسان: يا بنى تميم تحابوا تجتمع كلمتكم، وتبأذلو تعتدل أموركم، وابدءوا بجهد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

كلمات حكيمة للأحنف

قال: فى ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلانى بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعنى الملوك - ما لم أدع إليه،

وما حللت حبوتي إلى ما يقوم الناس إليه، وقال: ألا أدلكم على المحمّدة بلا مرزقة؟ الخلق السجّيح والكف عن القبيح ألا أخبركم بأدواء الداء؟ الخلق الدنى، واللسان البذى، وقال: ما خان شريف ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن وقال: ما ادخرت الآباء للأبناء، ولا أبقيت الموتى للأحياء، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب وقال: كثرة الضحك تذهب الهيبة وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئا عرف به، وسمع رجلا يقول: وما أبالي أمدحت أم ذممت، فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام، وقال: جنّبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء، فإنى لأبغض الرجل يكون وصافا لفرجه وبطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيّه.

وكان يقول: إذا عجب الناس من حلمه: فإنى لأجد ما تجدون ولكنى صبور وكان يقول: وجدت الحلم أنصر لى من الرجال وقال: الكذب لا حيلة له، والحسود لا راحة له، والبخيل لا مروءة له، والملول لا وفاء له، ولا يسود سيئ الأخلاق ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلا أن يكتّم ذلك ويتجمل وقال: أربع من كن فيه كان كاملا، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالحى قومه: دين يرشده، أو عقل يسدده أو حسب يصونه أو حياء يقناه وقال: المؤمن بين أربع مؤمن يحسده، ومنافق يبعضه وكافر يجاهده، وشيطان يفتنه وأربع ليس أقلّ منهن: اليقين، والعدل، ودرهم حلال وأخ فى الله وقال: لأن أدعى من بعيد، أحب إلى من أن أقصى من قريب - وكان يقول: إياك وصدر المجلس، وإن صدرك صاحبه، فإنه مجلس قلعة وقال: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات وقال: رب غيظ تجرّعته فحاجة ما هو أشد منه وقال: من كثر كلامه كثر سقطه ومن طال صمته كثرت سلامته وقال: ثلاث لا أناة فيهن عندى قيل: وما هن يا أبا بحر؟ قال: المبادرة بالعمل الصالح، وإخراج ميتك، وأن تنكح الكفء أيمك وكان يقول: لأفدى تحكك فى ناحية بيتى أحب إلى من أيم رددت عنها كفتا.

سؤال عبد الملك للعجاج وما أجاب عنه

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال: يا عجاج: بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه إخراج الأخبية، قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزا يمنعنا من أن نظلم، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نظلم

فعلام الهجاء؟ فقال: لكلماتك أشعر من شعرك فأني لك عز يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب البارع، والفهم الناصع، قال: فما الحلم الذي يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرق والطبع التالذ، قال: يا عجاج لقد أصبحت حكيما قال: وما يمنعني وأنا نجى أمير المؤمنين؟

عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشارى. قال: اضربوا عنق ابن الفاجرة، فقال عمران: لبئس ما أدبك أهلك يا حجاج! كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتني به؟ أبعد الموت منزلة أصانعك عليها؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال: خلوا عنه، فخرج إلى أصحابه، فقالوا: والله ما أطلقك إلا الله فارجع إلى حربته معنا فقال: هيهات! غل يدا مطلقها، وأسر رقبة معتقها.



أهم المصادر والمراجع

- ١ - أعلام الأدب فى عصر بنى أمية - تأليف/ محمد عبد المنعم خفاجى ، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ٢ - جمهرة خطب العرب، تأليف/ أحمد زكى صفوت، الجزء الثانى، العصر الأموى (البابى الحلبى) ١٩٥٣ هـ / ١٩٣٢ م.
- ٣ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى، تأليف/ شوقى ضيف، القاهرة ١٩٥٢م.
- ٤ - الشعر فى العصر الأموى، بقلم/ خليل مردم (مم ٤٤ - كانون الثانى) يناير ١٩٥٥م.
- ٥ - أمراء البيان، تأليف/ محمد كرد على، القاهرة ١٩٣٧م.
- ٦ - أعلام الأدب فى عصر بنى أمية، تأليف/ محمد عبد المنعم خفاجى، القاهرة ١٩٥٤م.
- ٧ - أدب الخلفاء الأمويين، تأليف/ عبد الرازق حميدة، القاهرة، الأنجلو المصرية ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
- ٨ - شعراء البلاط الأموى، تأليف الدكتور/ عمر فروخ، بيروت ١٩٥٤م.
- ٩ - شعر الخوارج: نشأته وتطوره، وتأليف/ أحمد عبد الستار الجوارى، القاهرة ١٩٤٨م.
- ١٠ - شعر الخوارج (حرره/ إحسان رشيد عباس) بيروت، دار الثقافة ١٩٦٢م.
- ١١ - أدب الخوارج فى العصر الأموى، تأليف سهير القلماوى، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م.
- ١٢ - تاريخ النقائض فى الشعر العربى، تأليف/ أحمد الشايب القاهرة ١٩٤٦م.
- ١٣ - من أعلام الشعر السياسى، تأليف/ عمران بن محمد بن عمران، الرياض ١٣٧٧هـ.
- ١٤ - نقائض جرير والأخطل، بقلم/ لويس شيخو (مجلة المشرق).
- ١٥ - أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى، تأليف/ عبد الحسيب طه حميدة، القاهرة، السعادة ١٩٥٦م.
- ١٦ - أثر التشيع فى الأدب العربى، تأليف/ محمد سيد كيلانى، القاهرة، مكتبة مصر ١٩٤٧م.

- ١٧ - الأدب فى ظل التشيع ، تأليف/ عبد الله نعمة ، بيروت .
- ١٨ - أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ، تأليف/ عبد الحكيم بلبع القاهرة (مكتبة نهضة مصر) ١٩٥٩م .
- ١٩ - جمهرة رسائل العرب ، تأليف/ أحمد زكى صفوت ، القاهرة ١٩٣٧م .
- ٢٠ - القصص فى الأدب العربى ، بقلم/ أحمد ضيف (مجلة المقتطف - فبراير - شباط ١٩٣٥م) .
- ٢١ - الأغانى لأبى فرج الأصفهاني ، طبعة الساس .
- ٢٢ - الكامل للمبرد .
- ٢٣ - طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي .
- ٢٤ - العقد الفريد ، تأليف/ محمد سعيد العريان ، الطبعة الثانية .
- ٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى .
- ٢٦ - البيان والتبيين للجاحظ ، تعليق/ محمد عبد السلام هارون .
- ٢٧ - الموشح للمرزبانى .
- ٢٨ - تاج العروس للزبيدي .
- ٢٩ - كتاب الأمالى للزبيدي (حيدر آباد الدكن) (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م) .
- ٣٠ - معجم الأنساب والأسر الحاكمة ، للمستشرق زامباور .
- ٣١ - الأعلام لخير الدين الزركلى .
- ٣٢ - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكيم .
- ٣٣ - كتاب المعانى الكبير لابن قتيبة (حيدر آباد الدكن) .
- ٣٤ - كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري (القاهرة - دار إحياء الكتب العربية (١٣٧١ هـ / ١٩٥٢م) .
- ٣٥ - رسائل البلغاء ، الطبعة الثانية عنى بجمعها/ محمد كرد على مصر - دار الكتب العربية الكبرى لمصطفى البابلى الحلبي ١٣٣١ هـ / ١٩٣١م .
- ٣٦ - جمهرة رسائل العرب - عبد الحميد الكاتب - لخليل مردم المجلد الأول ١٩٣٦م .

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
إهداء	٣
مقدمة	٥
الثقافات الأجنبية	٨
أثر الأحزاب السياسية فى ازدهار الأدب الأموى	١١
سياسة الأمويين وأثرها فى الأدب	٢١
الشعر فى عصر بنى أمية	٢٥
خصائص الشعر	٢٧
الشعر والشعراء	٢٨
موضوعات الشعر الأموى	٣١
المدارس الجديدة فى الشعر الأموى	٣٥
سمات الشعر الأموى وخصائصه	٣٩
من أعلام الشعراء فى العصر الأموى	٤١
النثر الفنى	٤٦
الفن الجديد فى العصر الأموى	٤٩
بيئات الشعر فى العصر الأموى	٦٧
النثر الفنى فى عصر بنى أمية	٧٩
الكتابة	١٠٥
فن النقائض	١١٣
الوصايا	١١٦
فن المقال	١٣١
أهم المصادر والمراجع	١٥٨